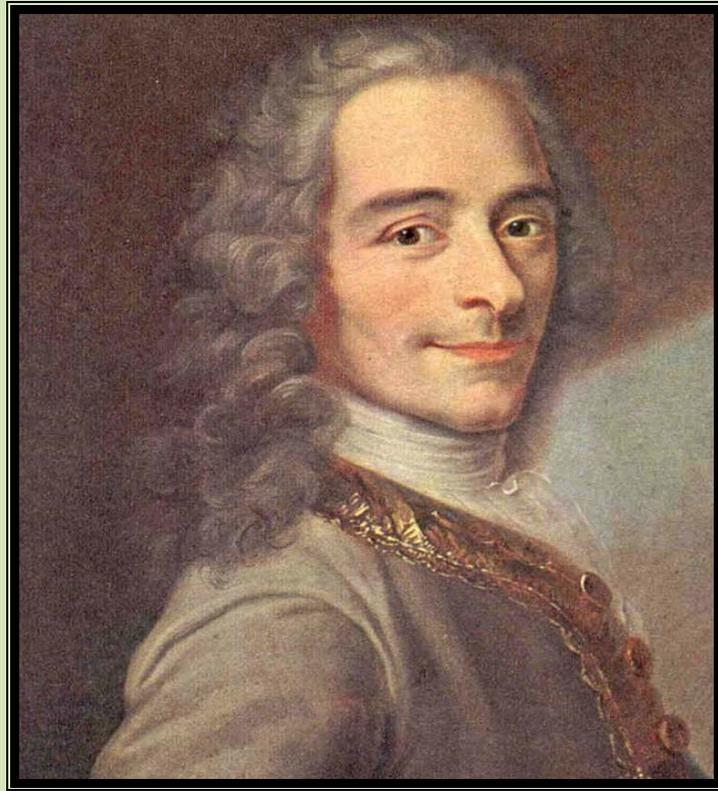




محاضرات في ...

تاريخ أوروبا الحديث المعاصر

الفرقة الأولى - أساسي - دراسات إجتماعية



خبز وطنك أفضل من بسكويت أجنبي
"فولتير"

أ.د. محمد سيد إسماعيل

2023م

بيانات أساسية

الكلية: التربية

الفرقة: الأولى - أساسي دراسات

التخصص: تربية - تاريخ

عدد الصفحات: 127.

القسم التابع له المقرر : قسم التاريخ- كلية الآداب.

الرموز المستخدمة

نص للقراءة



فيديو للمشاهدة.

والدراسة.



أسئلة للتفكير والتقييم



رابط خارجي

الذاتي.



تواصل عبر مؤتمر



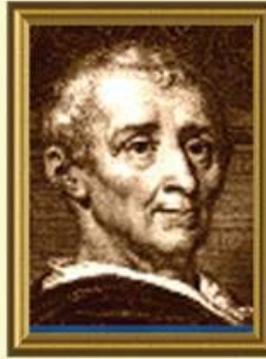
أنشطة ومهام.

الفيديو.



(تاريخ الفكر السياسي)

مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥ م)



هو المفكر السياسي الفرنسي "شارل لوي دي سيكوندا" والمعروف باسم "مونتيسكيو" "Montesquieu"، ولد مونتسكيو في عام ١٦٨٩م حيث تعلم الحقوق وأصبح عضو برلمان عام ١٧١٤م، نشر أهم كتبه في عام ١٧٤٨م والمعروف بـ"روح القوانين" أو "الشرائع" في جنيف في ٣١ جزءاً وأضحى من أبرز المراجع في العلوم السياسية. ولقد أشار في كتابه هذا إلى ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم وهي: (الملكية، الديكتاتورية، الجمهورية). وهو صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حالياً.

تحت إشراف
د. محمد سيد إسماعيل حسن

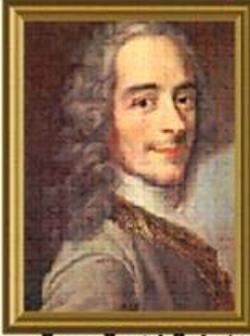
إهداء من الفرقة
ال... تاريخ

مطبوعات "سيمنار شفيق غربال للتاريخ الحديث والمعاصر"



(تاريخ الفكر السياسي)

فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م)



هو المفكر السياسي الفرنسي فرانسوا ماري أروويه والمعروف بفولتير. وقد اتخذ هذا الاسم فولتير الذي اتخذ الكاتب عام ١٧١٨ بوصفه اسماً قلمياً مستعاراً، عاش خلال عصر التنوير، كان غزير الإنتاج؛ حيث قام بكتابة أعمال في كل الأشكال الأدبية تقريبا؛ فقد كتب المسرحيات والشعر والروايات والمقالات والأعمال التاريخية والعلمية وأكثر من عشرين ألفاً من الخطابات، ولقد تركت أعماله وأفكاره بصمتها الواضحة على مفكرين مهمين تنتمي أفكارهم للثورة الأمريكية والثورة الفرنسية. عرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الطريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان.

مدافعاً صريحاً عن الإصلاح الاجتماعي. تُوِّفِيَ « فولتير » عام ١٧٧٨م في باريس، ورفضت الكنيسة إقامة صلاة له، فُدفن سراً في إحدى الكنائس. اعتبرته الجمعية الوطنية الفرنسية أحد من بشرُوا بالثورة الفرنسية فجمعوا رفاتِهِ وبنَى نصب تذكاري له في مقبرة العظماء « البانتيون » عقب الثورة الفرنسية. انتفض فولتير ضد الحكم الملكي، وناذى بضرورة أن يكون الحكم قائماً على أساس قانون العقل والمنطق، وليس على أهواء شخص من الأشخاص تى لو كان ذلك الشخص الملك نفسه. وإذا كان فولتير يروي آثار الظلم الذي تفرضه الملكية؛ فلأنه يريد أن يعي الناس هذا الأمر، ويقفوا بوجهه. وعلى ذلك، سعى فولتير إلى رسم برنامج سياسي يهدف من خلاله إلى القضاء على التعصب الديني؛ وذلك بتقوية الدولة على حساب الكنيسة، إذ تمثل الدولة الجانب القانوني المدني، في حين تمثل الكنيسة الجانب الديني المتشدد، على الأيقع الخلط بين الجانبين، فيتهم الفرد في إيمانه بالله.

- ذلك العصر الذي ظهر في بريطانيا إلا أن التطور الحقيقي كان في فرنسا-

تحت إشراف
د. محمد سيد إسماعيل حسن

إهداء من الفرقة
ال... تاريخ

مطبوعات "سيمنار شفيق غربال للتاريخ الحديث والمعاصر"



(تاريخ الفكر السياسي)

مكيافيللي (١٤٦٩-١٥٢٧ م)



هو المفكر السياسي الإيطالي نيقولا مكيافيللي المؤسس للتنظير السياسي الواقعي إبان عصر النهضة، وهو صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة. ترك مكيافيللي خلفه ثروة سياسية وأدبية وفكرية قدر عددها نحو الثلاثين كتاباً، أشهرها كتاب الأمير المكتوب في عام ١٥١٣م، ومن الملاحظ أن هذا الكتاب لم ينشر إلا في عام ١٥٣١م أي بعد وفاة مكيافيللي، ولذا لم يفهمه البعض وهاجموه حتى أصبح اسمه ملازماً للشر، ولم يصل مكيافيللي وفكره لما وصل إليه الآن إلا في القرن الثامن عشر عندما مدحه جان جاك روسو، وفيخته، وشهد له هيغل بالعبقرية. ويعتبر مكيافيللي أحد الأركان التي قام عليها عصر التنوير في أوروبا. وقيل أن «موسوليني» لم يكن لينام حتى يقرأ كتاب الأمير كما قيل: إن «نابليون» و«هتلر» كانا يتخذانه مرجعاً لسياساتهم.

تحت إشراف
د. محمد سيد إسماعيل حسن

إهداء من الفرقة
ال... تاريخ

مطبوعات سيمينار شفيق غربال للتاريخ الحديث والمعاصر

الفصل الأول

عصر النهضة الأوروبية

كان عصر ما قبل النهضة هو المصطلح الذي أطلقه علم التأريخ على الفترة التي سبقت عصر النهضة، والتي أمكن من خلالها الكشف عن وجود سلائف عصر النهضة من الفنانين والأدباء في المقام الأول. قد قامت الدعوة إلى ضرورة التغيير والتحرر من هذا الظلام المدقع بعد سنوات مريرة عاشتها الدول الأوروبية تحت سيطرة الكنيسة على الأفكار والمعتقدات، والتصدي للفكر العلمي الذي قام به بعض العلماء وعلى رأسهم العالم الكبير جاليليو، وعاش الأوروبيون عصر طويل تحت أحكام الكنيسة التي كانت ليها الكلمة العليا في فرض السلطة الدينية، ولكن فاق الأوروبيون وتمردوا عليها بعد أن انتشر فيها الفساد. كان النظام الإقطاعي هو السائد في أوروبا في ذلك الوقت، فكانت ملكية الأراضي الزراعية تقتصر على أصحاب الدرجات الرفيعة بالمجتمع، أما باقي أفراد المجتمع فيعملون كفلاحين وعمال في الأراضي بنظام السخرة، ولا يتمتعون بحق الإمتلاك فيعيشون تحت وطأة الفقر وتسلب منهم كثير من حقوقهم.

☒ عصر النهضة الأوروبية "The Renaissance"

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ أوروبا إلى ثلاثة عصور (القديم والمتوسط والحديث)، وأساس هذا التقسيم هو اطلاق اسم العصر على عدة قرون من الزمن، كانت فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة ومتقاربة "سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفنياً". وكلمة نهضة في معناها الضيق "حركة بعث التراث القديم أو إحياء ذلك التراث" أي أنها تعني البعث الجديد أو حرفياً الولادة الجديدة، أما في معناها الشامل فهي تعني تحرر العقل الإنساني من قيود العصور الوسطى.

وأنة لمن الصعب أن تُحدد للنهضة بداية معينة، وذلك لأنها دور انتقال، فبعض مظاهرها جاء قبل القرن الرابع عشر، مثل دراسة القانون الروماني، كما أن ظهور المدن الأوروبية، وما هيأت للصناعة والتجارة من تقدم، ومن هذه المظاهر اتساع المعلومات

الجغرافية، نتيجة لكشف العالم الجديد، ومنها الخروج على البابا وحركة الإصلاح الديني، وعلى هذا نستطيع أن نقول أن هذا العصر بدأ في القرن الثالث عشر، وأخذت النهضة في النمو والتقدم والإنتعاش في خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، واستمرت حتى أدركت القرن السادس عشر، على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن النهضة لم تبدأ في جهات أوروبا في وقت واحد، ومع ذلك فقد أطلق المؤرخون تسمية "عصر النهضة" على الفترة التي تتوسط العصور الوسطى والعصور الحديثة والتي تشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

☒ خصائص النهضة

تتمثل في الخصائص السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية، فأما عن السياسة فلم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذي نفهمه بها الآن، مفهومة في العصور الوسطى، فعلماء النظريات السياسية في العصور الوسطى، كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة، يحكمها البابا والإمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، الأول في الشؤون الدينية، والثاني في الشؤون الدنيوية، ولهذا فإنه يجب على كل الملوك إطاعتها. وأثناء الإنهيار السياسي للإمبراطورية التي عرفتها العصور الوسطى بدأت الدول القومية تأخذ في النمو، ولكن في خطوات بطيئة ومضنية، وقد ظهرت في إنجلترا أولاً حيث كانت الظروف ملائمة لنشأتها، ثم في إسبانيا والبرتغال وفرنسا وفي الولايات الكبرى من مجموعة الدويلات الألمانية، ومع بداية القرن السادس عشر توطدت دعائم النظم القومية في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا.

في مجال السياسة الخارجية يعتبر النصف الثاني من القرن الخامس عشر من الفترات المهمة والحاسمة في تاريخ أوروبا، فالدولة البيزنطية قد انهارت بسقوط القسطنطينية عام 1453م، وبدأت مرحلة جديدة بين الإسلام والمسيحية تتمثل في الدولة العثمانية ودول أوروبا كلها، غير أن المد الإسلامي في الجهات الجنوبية الشرقية من أوروبا قد تزامن مع انحسار في الأجزاء الجنوبية الغربية مثال ذلك سقوط غرناطة في عام 1492م.

ولما ظهرت النهضة بدأ الناس يفكرون في النظم الحكومية، وجاءت النظرية التي تقول بأن مهمة الحكومة هي السهر على مصالح الأمة، فبدأ الناس يعتقدون أن أصلح الحكومات أقدرها على أداء هذه المهمة، وبدأ ما نسميه بالعلوم السياسية وظهر الإيطالي "ميكافيللي" بآرائه السياسية في كتابه "الأمير" الذي درسه كل من شغلته السياسة، والذي يتضمن دراسة واسعة عن الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية. وقد اعترض ميكافيللي على منازعة زعماء الكنيسة ودفعهم بأن الحكام السياسيين الزمنيين ينبغي لهم الخضوع للسلطة العليا لهيئة الكهنوت الروحية، وأصر على ضرورة استقلالهم عنها.

من الناحية الاقتصادية فقد أصبح المال، وهو دائماً قوة يُحسب حسابها في شؤون البشر، أكثر توافراً في أواخر العصور الوسطى، ثم سرعان ما ازداد وفرة مع بداية القرن السادس عشر فقد نمت التجارة في كل الأقطار الغربية في أعقاب العامل الأول الذي أعشها أثناء الحروب الصليبية، ونتج عن ذلك نشأة طبقة وسطى. وقد أدى اتساع نطاق التجارة الأوروبية إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر، التي ترتب عليها تغير كبير في النظم الاقتصادية الأوروبية، فبعد أن كان الاقتصاد الأوربي اقتصاداً زراعياً راکداً أصبح اقتصاداً ذا طابع تجاري وزراعي، وبدأت الصناعة تنمو، مما ساعد على نمو المدن التي ازدهمت بالسكان وتحولت إلى سوق رابحة لتصريف السلع الصناعية، وقد جذب ذلك عدد كبير من أهل الريف المشتغلين بالفلاحة إلى المدن، حيث أحس الفرد أنه في هذا المجتمع الجديد يستطيع أن يعيش حراً دون أن يخضع للعبودية التي كان يخضع لها في ضيقة الإقطاعي، ولذا ازدادت الهجرة من الريف إلى المدينة حتى اندثرت قرى بأكملها. نتيجة للتحرر الاقتصادي وبداية التحرر الاجتماعي، ستكون الحرية بكل صورها من خصائص ومظاهر النهضة الأوروبية؛ فأخذ تحرر النفوس يظهر في النطاق الديني.

على أية حال فإن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة؛ وكانت علمانية وحرابت زيادة سلطة الكنيسة، وكانت عقلانية ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق، ولقد عملت هذه الحركة على إضعاف الكنيسة، وساعدت على استمرار التغير الاجتماعي والفكري، ولقد اعتمدت حركة النهضة على سكان المدن ورجال المهن والتجارة،

والذين تزايدت الثروات في أيديهم، لم يكن الفرد في العصور الوسطى أصل المجتمع، وإنما كان يتمثل ذلك في الجماعة أو الطائفة أو النقابة، فالمرء كفرد لم يكن له وزن أو اعتبار وإنما كان له شأنه كتابع أو جزء من الهيئة التي ينتمي إليها، ولذلك لم يكن هناك مجال لنشاط المرء كفرد، ولا فرصة للظهور في المجتمع، وبالتالي لم تنهياً له الظروف لإبراز شخصية مستقلة، لها حرية الرأي والتصرف، والطريقة الوحيدة التي كانت أمام رجل طموح يبغي الوصول إلى الرفعة والشهرة، هي انخراطه في سلك أكبر الطوائف حينئذ وهي الكنيسة، أما في عصر النهضة؛ فقد ظهر الفرد بنفسه في المجتمع، وأصبح بالتدرج أصله، بعد أن كانت الجماعة أو الهيئة، وبذلك تمهد السبيل أمام الفرد، لإظهار عبقريته واستغلال مواهبه كما يشاء.

ومن خصائص النهضة أن أفسحت للنساء مجالاً، وزادت في قيمتهن، لأن أهم ظاهرة في النهضة الإيطالية عبادة الجمال، وإحلال الفروق محل التقشف، وترك الأفكار المحزنة، والعناية بصحة الجسم ونشاطه فكثرت مناقشات السيدات في هذه الموضوعات التي تناسبهن، وقد تنوع نشاط النساء حتى شمل الرقص والغناء ودراسة الفلسفة والآداب القديمة، والعناية بالأسرة والملابس وحكم الأقاليم، وفي كل هذا أظهرن مقدرة كبيرة، ونشأت حول بعضهم دوائر للعلم والأدب، وفي هذه المجتمعات بدأت الفكرة الأوربية الحديثة، من أن حرية الإختلاط تحوط الأخلاق بسياج أقوى من سور العزلة.

كما تميزت هذه الفترة بظهور بعض الكتاب والأدباء الذين ثاروا على الروح القديمة، وحرروا عقولهم من بعض قيود العصور الوسطى مثل الإيطالي "دانتي الجيبري" الذي يعتبر أول من استعمل اللغة الإيطالية في التأليف؛ فنشر كتابه الشهير "الكوميديا الإلهية" وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى الجحيم والمطهر والجنة. أيضاً بدأت روح البحث والنقد على الخرافات الذائعة والعقائد المضللة، بل قادت إلى التهجم عن الكنيسة ونقد رجال الدين، وطرح أفكارهم في كثير من الأحيان، ونتيجة لهذا التطور الفكري، ذاع كثير من النظريات العلمية الجديدة كفكرة كروية الأرض التي قام بنشرها "تيقولاس كوبر نيكس". ناهيك عن العالم الإيطالي "جاليليو" أول من استعمل المنظار في رصد الكواكب، وكان لروح البحث وحرية التفكير والتحرر من قيود العصور الوسطى أن حدثت عدة اختراعات

مثل اختراع البارود، أيضاً الإهتمام إلى استعمال "البوصلة" وإلاسطرلاب، يرجع إليه الفضل في تشجيع الملاحين على الإقدام ومواجهة الأخطار في سبيل تحقيق الغايات، مما أدى إلى الكشوف الجغرافية التي قلبت أوضاع العلم، كما أن اختراع "جوتنبرج" الطباعة، وكان الإنجيل أول كتاب طبع في عام 1455م يعد أكبر اختراع في العصور الحديثة وقد أحدث انقلاباً عظيماً في عالم الكتابة والآداب.

الفصل الثاني

النهضة في الدول الأوروبية

النهضة في إيطاليا

تعد إيطاليا المهد الأول للنهضة في أوروبا، حيث وصلت بها إلى حد الكمال والنضوج، ثم أخذت تنتشر منها إلى جهات أوروبا المختلفة شيئاً فشيئاً، ولعل أهم دليل على بدء النهضة في إيطاليا قبل غيرها من الدول الأوروبية الأخرى هو تحرر المدن الإيطالية من سيطرة الإقطاع قبل غيرها من الدول الأخرى، وأصبحت عبارة عن دويلات صغيرة، وقد حكم هذه المدن حكام مطلقون. وقد تمثلت مظاهر النهضة في إيطاليا في الآتي:

1- جمع المخطوطات:

قام الحكام بجمع المخطوطات القديمة المتواجدة بمكتبات الأديرة والكاتدرائيات، وقد أسهم أمراء الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية في جمع هذه المخطوطات والكتب القديمة النادرة، وأقدوا العلماء لهذا الغرض في أوروبا والشرق، كما شجع الباباوات والكاردينالات هذه الحركة، وأنفقوا أموالاً طائلة للبحث عن هذه المخطوطات في إيطاليا والإمارات الألمانية وغيرها من أقطار أوروبا. وكان أمراء إيطاليا وأثريائها يتنافسون على جمع المخطوطات، حتى أصبح اقتناءها مظهراً سائداً من مظاهر النهضة في إيطاليا، ولذا كان من الطبيعي أن تنشأ حول المخطوطات تجارة منتشرة، وكانت القسطنطينية بعد سقوطها مركز هذه التجارة، والواقع أن المخطوطات القديمة كانت المصدر الأول في حركة إحياء الدراسات القديمة.

2- إنشاء المكتبات العامة والخاصة:

كان من الطبيعي أن يترتب على جمع المخطوطات القديمة، الإهتمام بإنشاء المكتبات العامة والخاصة؛ ففي مستهل الخامس عشر الميلادي جمعت "جير سان ماركو" في فلورنسا مكتبة احتوت على ثمانمائة من المخطوطات القديمة التي اشتراها بماله

الأمير التاجر "كوزيمو دي ميدتشي" كما أنشأ في أواخر ذلك القرن مكتبة عظيمة في الفاتيكان، وقبل سقوط القسطنطينية، ترجمت كتب "أرسطو وأفلاطون وبلوتارك" إلى اللغة اللاتينية، وجاء بعض الإغريق إلى فلورنسا ليعلموا اللغة والفلسفة في جامعاتها، وكان هؤلاء العلماء هم الذين مهدوا لزملائهم الذين رحلوا إلى أوروبا عام 1453م بعد سقوط القسطنطينية.

وقد أنشئت مكتبات عديدة جديدة في نابولي وبافيا وغيرها ففي أوربينو أنشأ أميرها مكتبة عظيمة أنفق عليها أموالاً طائلة وكانت تضم عدداً وافراً من المخطوطات اللاتينية والعبرية، وجميع كتب الطب الموجودة ومؤلفات الكُتّاب الإيطاليين في القرن الرابع عشر، بل لقد تنافس الأمراء والأثرياء والمدن في إنشاء المكتبات التي ضمت المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن، فزاد عددها في إيطاليا، وكان أشهرها مكتبة البندقية ومكتبة فلورنسا ومكتبة الفاتيكان.

3- الأكاديميات:

كانت هذه الأكاديميات عبارة عن مراكز أو حلقات يجتمع فيها عشرات الطلبة حول الأساتذة للإستماع والدراسة، وعن طريق الأكاديميات التي انتشرت في إيطاليا انتشرت الحركة الإنسانية، وأقدمها في عصر النهضة نشأ في نابولي على يد "ألفونسو الخامس" صاحب أراجونة الذي كان حاكماً على نابولي عام 1442م، وفي فلورنسا نشأت الأكاديمية أفلورنسية أو الأكاديمية الأفلاطونية.

4- تقدم علم التاريخ:

كان الإهتمام بالتاريخ هو المظهر الثاني من مظاهر النهضة والإحياء في إيطاليا، فأول مرة أخذت الدراسة التاريخية على أساس المادة الموثوقة وليس على أساس الرواية والسمع، كما أخذت الدراسة التاريخية تصطبغ بالصبغة الزمنية، وتنتقل من يد رجال الدين إلى العلمانيين، وكان من أبرز مؤرخي عصر النهضة "لورنزو" الذي وُلِدَ ونشأ في روما، ثم صار قسيساً فكتب سر ألفونسو الخامس صاحب أراجونة، وقد قام في عام 1400م "جين قسطنطين" الذي أثبت فيه بالدليل القاطع من واقع دراسة اللغة التي كانت

تكتب بها الوثائق، أن الهبة التي يبدو من أسلوبها - في زمن الإمبراطور قسطنطين-، وإنما كانت مزورة افتعلت في روما في زمن متأخر نحو خمسة قرون عن التاريخ الوارد بها، وقد حوكم بسبب هذا الكتاب، بل كاد يفقد حياته، لولا أن كان البابا في ذلك الوقت هو نيقولا الخامس، وكان باحثاً وسياسياً فأعجب ببحث فاللا وعينه موظفاً في الحكومة الباباوية.

5- ظهور اللغات الحديثة:

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجي على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم، حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، فمنذ عهد الدولة الرومانية القديمة، كانت هناك لغة لاتينية عامية إلى جانب الفصحى، ولم تكونا لغتين مستقلتين بل كانت من أصل واحد، وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والإقليمية وزاد الاختلاف والفوارق بين اللهجات العامية واللغة الفصحى، حتى تطورت هذه اللهجات إلى لغة ثانية هي اللغة العامية التي أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى، وقد دعت طائفة تطلق على نفسها اسم طائفة الإنسانيين إلى إحياء اللغات القديمة.

6- تطور الفنون الجميلة:

كان من الطبيعي بعد أن خفت قبضة الكنيسة على الحياة الاجتماعية في أوروبا، مع ظهور طبقة مادية النظرة إلى الحياة كالطبقة البرجوازية، أن ينعكس ذلك على الفنون، التي كانت في العصور الوسطى موجهة لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية بوجه عام، إذ دبت فيها روح علمانية متحررة من تزمّت العصور الوسطى، وتمثل ذلك بصفة خاصة في فن الرسم وفن النحت وفن العمارة. وبالنسبة لفن الرسم فيعتبر الفن الأول لعصر النهضة في إيطاليا، وقد اصطبغ بصبغة دنيوية سافرة، وتحرر من قيود وتزمّت العصور الوسطى، وتمثل ذلك في إبراز أجزاء جسم الإنسان وتصوير جمال الوجه والطبيعة، وقد تنافست المدن الإيطالية في هذا القرن، وبرزت فيها اثنتان هما: فلورنسا والبندقية. ومن أشهرهم "ليوناردو دافنشي" من أشهر صوره "الجيوكندا أو الموناليزا، و"مايكل أنجلو" الذي رسم صورة "يوم الحساب". ويعتبر ليوناردو وأنجلو زعيما المدرسة الفلورنسية، ويتميزان بأن نشاطهما الفني لا يقتصر على الرسم، بل يتعداه إلى بعض الفنون الأخرى، أما ليوناردو

فقد اشتمل نشاطه على التصوير والنحت والموسيقى والأدب والهندسة العسكرية والعلوم الطبيعية، وأن قامت شهرته على فن الرسم.

✘ عوامل جعلت من إيطاليا المهد الأول للنهضة

1- المدن الإيطالية:

كانت مدن إيطاليا "فلورنسا ووجنوة والبندقية" مهياً بموقعها ومركزها لاستقبال العلوم والفنون، فإن هذه المدن نفضت عنها أعباء العهد الإقطاعي كما سبقت الإشارة، وأصبحت مستقلة، لا سيد عليها غير القانون، وساعد الكفاح المستمر فيها على أعمال الفكر، وكثرت الثروة فيها بسبب اتساع تجارتها ووفرة صناعاتها، وانصرف طلاب العلم والفن إلى دراسة العلوم والآداب والفنون القديمة، ورأي الناس حولهم صوراً دقيقة الصنع، وأثاثاً فاخراً، وقصوراً شاهقة، فصرفوا المال لإشباع غاياتهم من الفن الجميل، وتخلص سكان هذه المدن من قيود العصور الوسطي. وقامت بهذه المدن حكومات مستنيرة قوية، وكانت أنظمة هذه الحكومات تشبه بوجه عام نظام الحكومات التي قامت أيام عظمة الحضارة الإغريقية القديمة، وكان من مميزات هذه الحكومات إشراك الشعب في سياستها، ومساندة أمرائها للفنون، فكان ذلك باعثاً للأدباء وأهل الفنون على النبوغ والإبداع، ثم أخذت كل مدينة تنافس غيرها في عمل واقتناء أنفس الكتب وإبداع الصور، وتشبيد أفرس المباني والمعاهد والكنائس.

2- مركز إيطاليا الجغرافي :

إن وقوع إيطاليا في مركز متوسط على ساحل البحر المتوسط في عصر كان فيه هذا البحر مركز تجارة العالم، اكسبها أهمية لا تقدر، وقد أصبحت حلقة الاتصال بين أوروبا، وبلاد شرق البحر المتوسط، والشرق الأقصى، فاتسعت تجارتها ونمت صناعاتها، فكثر ثراء مدنها، كالبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان، والثراء يولد الرغبة في الحرية، ويمهد السبيل للاشتغال بدراسة الفنون والعلوم والآداب. ونعرف أن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطي، وأنها أسهمت بنصيب وافر في ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر، وكانت مراكز الحضارة الإسلامية موجودة في كل

مكان، وكان أقربها إلى أوروبا يتمثل في جامعات الأندلس في الغرب، وصقلية وتونس في الوسط. وكانت إيطاليا بفضل موقعها قريبة من أقاليم الدولة البيزنطية.

3- الحضارة الرومانية القديمة:

ولما كانت إيطاليا مهد الحضارة الرومانية القديمة، فقد ساعد ذلك على أن تكون أسبق الدول إلى الدخول في ميدان النهضة، فقد كانت ذات الكنوز الدفينة في العلوم والآداب والنقش والتصوير والآثار والمسكوكات فجعل الإيطاليين على اتصال وثيق بآداب الرومان وفنونهم وقوانينهم، فتأثروا بذلك، وتطلعوا ليكونوا ورثة أجدادهم الورمان، في إحياء مجدهم الذي أنت عليه الأيام.

4- مقر البابوية:

كانت روما قبلة العالم المسيحي الغربي، الأمر الذي كان يثير اعتزاز الإيطاليين بها، وكانت الكنيسة من القوي المضادة للتقدم والتطور، ولكن نزولاً إلى ميدان السياسة العلمانية والتوسع الإقليمي كإمارة ودولة، وصراعها مع الإمبراطورية، أدى بالتالي إلى ضعفها، وزاد من هذا الضعف انتشار الفساد فيها، الأمر الذي سهل مهاجمتها، ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوروبا، وأخذ بعض البابوات المستبشرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات واقتناء الكتب وبناء الأكاديميات، وجمع القطع الفنية والعمل على تجميل مدينة روما، وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا في رعاية العلوم والفنون والآداب، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم واشتهروا في التاريخ باسم بابوات النهضة. ولما كان الإيطاليون أقرب الشعوب إلى مقر البابوية، أصبحوا أشد من غيرهم ألفة واختلاطاً برجال الكنيسة، وأكثرهم وقوفاً على نقائص رجال الدين وعيوبهم وأخطائهم، أوسعهم علماً بما دخل الدين من بدع وخرافات لا تمت إلى الدين بنسب، ولهذا لم يعودوا يخافون تهديد الكنيسة، ولا يخشون سلطة رجال الدين، كإخوانهم خارج إيطاليا، فكانوا لذلك أسبق الشعوب في تحطيم قيود العصور الوسطى وأغلال الكنيسة.

أهم مراكز النهضة في إيطاليا: عمت النهضة كل إيطاليا، ولكن فلورنسا وروما قد برزتا في هذا المضمار، فقد كانت فلورنسا تحت حكم " آل مدتشي "، وكانوا أمراء ديمقراطيين،

ذاع سيطهم في المقدرة الإدارية، وفي معاضدة العلوم والفنون، فبرع تحت رعايتهم "دوناتلو"، والذي أبدع في تمثيل حياة الناس وبخاصة الأطفال في تماثيل من المرمر والبرنز، وقد بلغ "جيبيرتي" حد السحر في الحفر والباز، ومن مظاهر النهضة في فلورنسا قيام مدارس على النمط الذي دعا إليه "روسو" فيما بعد، من بغض الترف وحب البساطة، والجمع بين البنين والبنات في مدرسة واحدة، بقصد تخريج أناس مثقفين بدياً وروحياً لا مجرد فلاسفة.

النهضة في إنجلترا

في إنجلترا فقد تأخر ظهور النهضة بسبب ما عانته من حرب المائة عام التي انتهت بطرد الانجليز من فرنسا عام 1453م، ولم يمض عامان على نهاية هذه الحرب الطويلة، حتى بدأت حرب جديدة معروفة باسم "حرب الوردتين" (1461-1485)م، وبعد أن تركت إنجلترا محاولتها احتلال فرنسا، عملت على بسط نفوذها على الجزر البريطانية، وعلى ضرب الإقطاع الموجود داخل المدينة، والتوسع في التجارة، وإنشاء المستعمرات فيما وراء البحار، ويرجع الفضل في كل ذلك إلى حروب الوردتين. وفي عام 1495م هاجمت فرنسا روما و نابولي، ولكن قوات البابا مع جيوش روسيا وإنجلترا وإسبانيا هاجمت القوات الفرنسية، وأجبرتها على الإنسحاب من نابولي، كما اشتركت القوات الإنجليزية مع القوات البابوية والسويسرية والإسبانية عام 1499م القوات الفرنسية التي احتلت نابولي مرة جديدة، واضطرتها إلى التراجع عام 1501م، وكان استمرار الحروب في إنجلترا من أهم أسباب تأخر ظهور النهضة فيها، وبعد نهايتها أخذت الدراسات الإسبانية طريقها إلى إنجلترا من خلال بعض الانجليز العائدين من إيطاليا ومدنها. ومنذ أوائل القرن السادس أخذ طلاب المعرفة من جامعة أكسفورد يفتدون إلى إيطاليا للإطلاع على آداب وفنون وعلوم النهضة الإيطالية، وقد نادت النهضة في إنجلترا بتحرير الفكر والبحث العلمي من حواجز وقيود الكنيسة، كما دعت إلى كنيسة قومية متحررة من سيطرة البابوية، وفي إنجلترا أظهر المسرح المتنوع الملى بالمغامرات والمفاجآت.

النهضة في فرنسا

من إيطاليا أيضاً سرت النهضة إلى فرنسا، فوجد العلماء والشعراء والفنانون أرحب صدر في ملوك فرنسا وأمرائها، من لويس الحادي عشر إلى فرانسوا الأول، على أن روح النهضة تتمثل في "مرجريت" أخت فرانسوا؛ إذ كانت مرجريت فنانة شاعرة واسعة الإطلاع، لا تنقطع الرسائل بينها وبين إرسمس، ومن أساطير النهضة الفرنسية "فرانسوا ريليه" وكان أول أمره راهباً، ثم صار طبيباً وداعياً إلى البحث العلمي، وهو أول فرنسي خالف أمر البابا، وشرح جثة إنسان، وكان رابليه متعظماً لتحصيل العلم والفضيلة والتجربة. مرت فرنسا بفترة صعبة في تاريخها، في الوقت الذي ظهرت فيه النهضة في إيطاليا، بسبب الحروب الطويلة التي خاضتها مع إنجلترا لاحتلالها بعض مدن إيطاليا، وأدت هذه الحروب إلى ضعف فرنسا خاصة مع تحالف كثير من الدول الأوروبية ضدها مثل قوات البابا والبندقية وسويسرا وإنجلترا وإسبانيا وبعض الدويلات الألمانية، ولكن بعد غزو فرنسا إيطاليا، شجع ملوك فرنسا عدداً من العلماء الإيطاليين والبيزنطيين على المجئ إلى باريس لتدريس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية فيها ثم زاد ظهور إعجاب ملوك فرنسا بالنهضة، وقد شجع فرانسوا الأول هذه الحركة في بلاده وأنشأ كلية فرنسا عام 1530م، خارج نطاق جامعة باريس، كما انتشر في النحت والرسم الفلمنكي غرباً إلى فرنسا، كما أثرت فرنسا في الفلاندرز.

الفصل الثالث

الكشوف الجغرافية

كانت البرتغال أول دولة أوروبية بدأت حركة الكشوف الجغرافية، وقد حظيت فكرة الكشف هذه بتأييد ورعاية الأمير البرتغالي المعروف "هنري الملاح"، وكان هنري ملماً بالجغرافيا والرياضيات التي عرفت آنذاك، كما كان مسيحياً متحمساً لنشر المسيحية بين سكان القارة الأفريقية، وقد قاد هنري حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، كما كان رئيساً لهيئة اليسوعيين "الجزويت" وبالتالي كان يهيم العمل على كسب أراضي وميادين جديدة للمسيحية، وقد أمضى نحو أربعين عاماً في إعداد الحملات الإستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقيا الغربية، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة في المحيط الأطلسي مثل جزيرة "ماديرا" في عام 1420م، وجزر كاناري وجزر أزور في عام 1431م، هذا زيادة على بعض المراكز على شاطئ أفريقيا مثل "الرأس الأبيض" عام 1441م، و"الرأس الأخضر" عام 1446م، وبذلك حقق هنري غرضه في الوصول إلى بلاد غانا، وعلى وجه العموم فإن طبيعة الاستعمار التجارية البرتغالية انعكست على قصر اهتماماته على الأشرطة الساحلية مثل (ساحل غانا وساحل الذهب وساحل العاج وساحل الزنج وساحل مالابار.....الخ).

وبدأت تجارة رابحة بين بلاد غانا وبين البرتغال، إذا بدأ التجار والملاحون يقتنصون العبيد من تلك الجهات وينقلونهم إلى أسواق أوروبا، وحنوا من هذه التجارة ربحاً وفيراً أغري الكثير من التجار بالمغامرة والقيام برحلات متوالية إلى جهات أفريقيا الغربية، ساعدت على التوسع في حركة الكشف، وكانت موضع تشجيع الأمير هنري حتى مات عام 1460م⁽¹³⁾، وقد أثرت وفاة الأمير هنري الملاح في حركة الكشف الجغرافي، ولكنها لم تتوقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين أن أفريقيا تهيئ لهم مورداً غنياً بالرقيق في وقت وجد البرتغاليون في تجارة الرقيق بالذات مصدراً هاماً للثروة، حتى أن هنري الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة في أوروبا.

ومن خلال الفترة من (1470-1482)م تم اكتشاف الجزء المتبقي من ساحل غانا، كما أن البرتغاليين في عام 1475م وصلوا إلى رأس كاثرين وفي عام 1482م استطاع " ديجو كام أن يحمل النفوذ البرتغالي إلى مصب نهر الكونغو فوصل إلى "رأس سانت ماري". وفي عام 1487م كانت رحلة " بارثولوميو دياز" التي كان الغرض منها الوصول للهند وإيجاد مملكة القس بريسترجون التي قيل أنها تبعد قليلاً عن الساحل الغربي لأفريقيا كما كان يهدف للوصول إلى بلاد الطرف الجنوبي لقارة أفريقيا، وقد نجح في مهمته، ثم عاد إلى بلاده يحمل أكاليل النصر، ونظراً لما قاساه من هول الزوابع عند طرف القارة، أطلق عليه "رأس الزوابع" وذلك بسبب العواصف الشديدة التي صادفها حولها، دياز أن ساحل القارة ينحرف في اتجاه الشمال الشرقي فعاد أدراجه إلى لشبونة، ولكن ملك البرتغال عندما أيقن أنه حقيقة الطرف الجنوبي للقارة وأن هذا الكشف يشير إلى الوصول إلى الهند، سماه "رأس الرجاء الصالح".

عند هذا الحد وقفت جهود البرتغاليين لمدة عشر سنوات، حدث خلالها ذلك الكشف الإسباني؛ فقد كشفوا طريقاً إلى الهند أقصر وأسهل من طريق جنوب أفريقيا، ولكن لما عرف أن طريق كولمب ليس قصيراً، تحرك ملك البرتغال "عمانويل الأول" أو السعيد " وأمر في 1497م باستئناف الحركة الكشفية، فأرسل الرحالة الكبير " فاسكو دي جاما إلى ممبسة وغيرها من ثغور شاطئ أفريقيا الشرقي، التي كانت تسكنها جماعات من تجار العرب، الذين أخذوا ينقمون من الأوربيين لتدخلهم في تلك الجهات لاحتكارهم تجارتها وتجارة الهند والشرق الأقصى، ولذلك رفضوا أن يرشدوه إلى الطريق الموصل إلى الهند، خشية أن يهتدي الأوربيون إلى طريق الهند، وينقلون تجارتها بحراً فينافسوا العرب.

غير أن فاسكو وجد بغيته في " ملندي اذ قبل بحار عربي هو "أحمد شهاب الدين بن ماجد" أن يهديه إلى مدينة "كاليكوت على الشاطئ الغربي للهند في 14 من مايو 1498م بعد 22 يوماً من مغادرته ماليندي، ولم يحسن سلطانها الملقب "زامرين" (أي سيد البحار) استقباله في أول الأمر، خاصة وأن تجارب العرب افهموا " زامرين" أن البرتغاليين ليسوا إلا لصوص بحر، ولكنه عاد وقربه إليه، وعقد معه معاهدة تجارية، عاد بعدها إلى "لشبونة" محملاً بالمتاجر الهندية والشرقية، وكان "دي جاما" بعمله هذا، أول

من فتح باب الاستعمار في الشرق، فقد هون لملكهم عمانويل الأول أمر العرب وأظهر له إمكان التغلب عليهم وأوضح له أن وسائل دفاعهم ضعيفة وأنه يمكن تأسيس دولة برتغالية عظيمة في بلاد الشرق، وخرج "دي جاما" مرة ثانية إلى الهند 1502م وأخذ يحارب الزامرين حتى هزم جيوشه في موقعة فاصلة قتل فيها الزامرين، مما أوجد في نفوس الأهالي البغض للبرتغاليين، وصمم البرتغاليون على القضاء على العرب والمسلمين في جميع البحار وتكوين دولة برتغالية قوية تسيطر على تجارة الشرق، بالاستيلاء على شاطئ أفريقيا الشرقي، والاستيلاء على هرمز عام 1510م وعدن 1513م مفتاحي الخليج العربي والبحر الأحمر، وقد تم لهم ذلك .

وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة في المحيط الهندي ينافسهم في ذلك البنادقة، ولكن الفتوحات العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حددت المحطات والمراكز والمستوطنات التي أقامها البنادقة، والتي كانت تدر لهم أرباحاً مهولة، فقد كان تجارها يسيطرون على تجارة البهار، وتأثر البندقية بهذا التوسع العثماني، ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة، ويضمنوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند، وينتهزوا الفرصة على سواحل أفريقيا ومهاجمة المنشآت العربية في المحيط الهندي وقاموا بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية، فأخذوا في إحراق سفن العرب، وفي هدم المدن والمراكز الإسلامية وطرد التجار، وادعوا أنها كانت حرباً صليبية ضد المسلمين، وتحول المحيط الهندي إلى بحر برتغالي.

في عام 1487م رأى البرتغاليون ضرورة بسط نفوذهم السياسي والحربي على الحبشة لتأمين طريقهم التجاري للهند، وكانت لديهم معلومات جديدة عن هذه البلاد، جمعوها عن طريق الأهالي وبواسطة بعض الرحالة مثل "كوفيلهام" الذي زار البلاد في نفس العام، ناهيك عن قيام بعثات التبشير بدور كبير في الكشف الجغرافي في هذه المنطقة) أدى إلى وجود تحالف صليبي قام بضغط متواصل على الصومال، ساعد الحبشة في حربها ضد الصومال بدافع من التعصب الديني، ورغبة هؤلاء الصليبيين في السيطرة على الصومال وبسط نفوذهم عليه. وقد حالت قوة المسلمين الموجودة على سواحل

المغرب دون تحقيق هدف أوروبا وهو القضاء عليهم، مما أدى إلى جعل البرتغاليين يتوقفون قليلاً ليضعوا مخططاتهم المدروسة فقرروا مايلي:-

1- اكتشاف طرق تجارية غير الطرق التي يسيطر عليها المسلمون وبهذا يصل الأوروبيون إلى الشرق، وينافسون المسلمين الذين سيفقدون ما يجنون من الأرباح من تجارة يسيطرون على طرفها.

2- عند الوصول إلى الشرق يجب السيطرة على تلك المناطق لإمكان التطويق التام والإستعداد لقتال المسلمين.

3- العمل على نشر المسيحية في البلاد التي يدخلونها وحث النصاري على محاربة الإسلام حرباً لا هوادة فيها .

4- الاتصال بنصاري الشرق وحضهم على العمل معاً لاجتثاث جذور الإسلام.

5- الإفادة من كل خلاف بين المسلمين.

☒ حركة الكشوف الإسبانية

إذا كان اكتشاف أمريكا الشمالية قد ارتبط باسم كولومبوس فإن معرفة أمريكا اللاتينية التصق باسم الرحالة الفلورنسي "أمريجو فيسبوتشي" والذي لعب دوراً كبيراً في اكتشاف العالم الجديد، وعليه فقد أطلق اسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إليه، إذ أنه كان قد اصطحبه كولومبوس في إحدى رحلاته عام 1499م، والذي كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية، وكان أول من نادى بأن الأرض الجديدة لم تكن آسيا فأصر "لوران دي مدسيس" على اطلاق اسمه على العالم الجديد، رغم أن الأوروبيون ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد باسم الهند.

ويعتبر كولومبوس رائد حركة الكشوف الإسبانية، والذي كان من إيطاليا من جنوة، درس الجغرافيا والرياضيات والفلك، بل وكان شاعراً ومسيحياً وواقعياً في نفس الوقت؛ كان شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة في عصره، ومسيحياً لأنه كان مستعد للقيام بحملة صليبية جديدة، وأما واقعياً لأنه اعتقد في أن الأرض كروية، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب، ما قامأجدده بالبحث عنه الشرق.

وكانت الفكرة السائدة لدى الكثيرين في ذلك الوقت، أن الأرض منبسطة وليست كروية كما كان يعتقد، ولهذا أخذ هؤلاء يبهونه على تهوره ويضحكون منه لجنونه، لكنه لم يعبأ بهم، وقد طلع لسامعيه بفكرة جديدة جريئة من الوصول إلى شرق آسيا وبلاد الهند وبالسير غرباً عبر المحيط الأطلنطي، لا بالسير شرقاً أو جنوباً، لم يعبأ بالخرافات السائدة آنذاك عن هذا المحيط وما فيه من أجنة وشياطين ونيران، وكان هذا العمل يحتاج إلى المال والرجال، وليس لديه من ذلك شيء، فعرض مشروعة على ملوك أوروبا وأمرائها الذين رفضوا تمويل مثل هذا المشروع، فأرسل أخاه لعرض المشروع على هنري السابع عام 1485م ملك إنجلترا فتردد، فعرض المشروع على "فريديناند وإيزابيلا" ملكي إسبانيا فقبلا مساعدته رغم نصائح رجال الدين وكبار رجال الدولة برفض مشروعه وعقدا معه معاهدة وأنعما عليه برتبة أدميرال أعظم على كافة البحار والجزر والقارات التي يكتشفها، على أن تؤول هذه الممتلكات لأولاده من بعده.

وجهاز كولمبس ثلاث سفن عليها تسعون بحاراً وثلاثون مسافراً بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق، وأقلع بها من "بالوس" جنوب جزائر كناريا، ثم إلى عرض البحر "المحيط" دون أن يعلم أنه بدأ حركة للاستعمار في تاريخ العالم، واستمرت الرحلة نحو 70 يوماً، حاول فيها مساعده أن يحاول اتجاه السير قليلاً إلى الجنوب، بدلاً من مواصلة السير صوب الغرب، ولولا هذا التغيير لوصل كولمبس إلى فلوريدا، ولأصبحت الولايات المتحدة مستعمرة إسبانية، ولكن وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا، وعندما نزل كولمبس إلى الشاطئ ركع وقبل الأرض وحمد الله، ثم أشهر سيفه ورفع علم قشتالة، وأمر الموثق بتحرير وثيقة للاستيلاء على هذه الأرض باسم فرديناند وإيزابيلا في عام 1492م.

أما الأهالي فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانين، ثم أخذوا في الإقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم، فمنحهم كولمبس بعض الخرز والأجراس الصغيرة التي كان قد أحضرها معه، وكان لون الأهالي داكناً، وأطلق الإسبانيون عليهم اسم الهنود وبقي هذا الإسم مستعملاً حتى الآن، وواصل كولمبس حملته من جزيرة إلى أخرى باحثاً عن الذهب والتوابل والخان الأعظم الذي كان يحمل له خطاب توصية من ملك إسبانيا وكان الأهالي يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم، وبدلاً من التوابل لم

يجد سوي القطن، إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة، يمكن استخدامها في الصباغة وفي الصيدلة والطب في أوروبا، ثم وصل هايتي وسماها هيسبانيولا وبني فيها قلعة، وترك فيها تسعة وثلاثين بحاراً كانوا أول المعمرين من أوروبا في العالم الجديد.

عاد كولمبس إلى إسبانيا ليعلن في البلاد وأمام كبار رجال المملكة اكتشافه الجديد، ثم قام كولمبس برحلته الثانية في 1493م وكان هذه المرة أحسن تجهيزاً وأكثر عدداً، فتألفت حملته من سبع عشرة سفينة عليها 1500 رجلاً، فتوجهوا إلى جزر الأنتيل أولاً ثم توجه إلى هايتي ليكتشف أن السكان قد قضوا على الإسبان الذين أبقاهم في المستعمرة في المرة السابقة فأقام مستعمرة أخرى جديدة بدلاً منها.

قام كولمبس بعد ذلك برحلتين إلى تلك الجهات، كشف في الثانية منها عام 1498م جزيرة "ترينداد"، وأبصر شاطئ أمريكا الجنوبية، ولكن أعداءه وشوا به، وأعادوه إلى إسبانيا مكبلاً بالأغلال ذليلاً، ولم ينقذه من هذا الذل وتلك المعاملة القاسية إلا الملكة "إيزابيلا" التي كانت تعطف عليه، وبموتها بعد قليل أهمل أمره وقام برحلته الأخيرة سنة 1502م، ووصل فيها إلى شواطئ أمريكا الوسطى بالقرب من بنما، ثم عاد إلى إسبانيا منزوياً متألماً لنكران جميله وجحود فضله، ومات سنة 1506م، وهو لا يعلم أنه كشف عالماً جديداً، بل كان على اعتقاده أنه وصل إلى شرق آسيا، ولذلك لم يطلق اسمه على القارة الجديدة وبعد إبعاد كولمبس عن أعمال الفتح والاستعمار زاد عدد المكتشفين والباحثين عن المجد والثروة في البلاد، ومن أبرزهم فسبوتشي، وكان دوره في اكتشاف أمريكا هو في الحقيقة أقل من دور سلفه كولمبس، حتى وفاة هذا الأخير كان من المعتقد أن الأرض المكتشفة حديثاً ليست قسماً من البر الآسيوي، وقد نشرت في أوروبا عدة رسائل من فسبوتشي يثبت فيها نظريته، وهذا ما دفع الناس لإطلاق اسم أمريكا على القارة الجديدة، وبعد وفاته بسنة واحدة أي في عام 1513م آتى الرحالة الإسباني بالبو بدليل جديد على صحة نظرية فسبوتشي إذا أنه وصل في اكتشافاته داخل الأرض الجديدة إلى المحيط الأطلنطي؛ فأثبت أن الأرض الجديدة أمامها بر وورائها بحر فجاء اكتشافه تصديقاً لنظرية سلفه.

وكان العالم الجديد يشتمل على إمبراطوريتين حتى وصول كولمبس هما إمبراطورية "الأزاتكة" في المكسيك، وإمبراطورية "الأنكا" في بيرو، وكانوا قد استعمروا غيرهم قبل أن يقوم الإسبان باستعمارهم، أما إمبراطورية الأزاتكة فكانت تمتد من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادى، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراغوا، وكان الأزاتكة قد جاءوا من الشمال في القرن الثالث عشر، وأنشأوا مدينة في وسط المستنقعات، وفي المكان الذي شاهدوا فيه نشراً كبيراً يأكل حية ضخمة، فأعتقدوا أنها إشارة من ربهم "مكسيتلي" لوقوف سيرهم وبناء عاصمتهم، التي ستحمل اسم "مكسيكو"، وسرعان ما اتحدت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية، وسادت قوانين الأزاتكة، وكان الأزاتكة يحبون الدماء، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به، بمجرد أن تطلب الإلهة تقديم القرابين والأضحيات لها، وقام الأزاتكة بذبح عشرين ألف رجل، وبيحرق قلوبهم بعد انتزاعها من أجسادهم، كضحية لافتتاح "معبد مكسيتلي"، وكان الأزاتكة يسلخون بعض البنات وهن إحياء في احتفالات عودة فصول معينة في كل عام.

أما المجتمع فكان أوليجاركياً في أول الأمر، وله مجلس شوري، وينتخب رئيسين مدي الحياة: الأول لإدارة الأمن ولجمع الضرائب، والثاني لقيادة الجيش ولالإشراف على الكهنة ثم تفوق الثاني، وأصبح إمبراطوراً وراثياً، وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه أو إلى أقرب أقربائه من ناحية الأم، وكان الأزاتكة يعرفون الذهب والرصاص والبرونز ولكنهم كانوا يجهلون الحديد، وكانت تجارتهم بدائية تعتمد على المبادلة والمقايضة، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس أو كمية من التبر في أنابيب من ريش الطيور كعملة بدائية.

أما إمبراطورية الأنكا فكانت قد نشأت في الأقاليم الإستوائية من أمريكا اللاتينية في بداية القرن الحادي عشر، وكان الأنكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسي لهذه الدولة، ويعتقد أنه من سلالة الشمس ويمثلها على الأرض، وكان يسيطر على رؤساء القبائل أو الكاباك، وكانت جماعات الأنكا تشتمل على عشرة أو خمسين أو مائة أو خمسمائة أو ألف رجل، ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف ومائة ألف، أما الأراضي فكانت ملكاً للأنكا كما كانت في مصر القديمة ملكاً للفرعون، وكان على الأهالي زراعتها على أن

يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام: الأول للشمس أي للكهنة، والثاني للدولة أي للعجزة والأرامل والأيتام، والثالث للمجتمع ويقسم بين الأسر الموجودة، ولم يتوصل الأنكا إلى ما توصل إليه الأزاتكة من التقدم في العلوم الرياضية والفلك ولكنهم بلغوا درجة كبيرة من التقدم في الهندسة والمعمار، وكان الأهالي يعرفون صهر النحاس وتشكيل البرونز والذهب ونسج الصوف وبناء القصور والمعابد والحصون، ولم يتوصلوا إلى معرفة الكتابة ولكن كانت لهم طريقة ساعدتهم على التذكر وهي المعروفة باسم الكيبو، وقدر العلماء سكان إمبراطورية الأنكا بأثني عشر مليوناً، وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الأزاتكة.

أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين موزعين بدون حكومات وبدون حضارات هامة، وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم، ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها، وروي كولمبس نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشري تظهي في قدر على النار، واستند في ذلك إلى الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر، في نفس الوقت الذي يأكلون فيه لحوم البيغاوات.

أما عن غزو الإسبان لأمريكا واستعمارها فقد تمثل في فتح المكسيك وبيرو موطن الإمبراطوريتين (الأزاتكة والأنكا) فقد سمع الغزاة الإسبان عن بلاد يكثر فيها الذهب والفضة فعهدوا إلى حملة بقيادة "فرديناند كورتيز" (1485-1547)م فتح هذه البلاد التي يطلق عليها الآن اسم المكسيك وكانت تعيش بها قبائل بعض بقايا جيش بشري تظهي في قدر على النار، وأسند في ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر، في نفس الوقت الذي يأكلون فيه لحوم البيغاوات.

أما عن غزو الإسبان لأمريكا واستعمارها فقد تمثل في فتح المكسيك وبيرو موطن الإمبراطوريتين "الأزاتكة والأنكا"، فقد سمع الغزاة الإسبان عن بلاد يكثر فيها الذهب والفضة فعهدوا إلى حملة بقيادة "فرانك كورتيز" (1485-1547)م، والذي فتح هذه البلاد التي يطلق عليها الآن اسم المكسيك وكانت تعيش بها قبائل الأزاتكة ويحكمها رئيس يدعى "منتزوما" وقد استطاع خلال سنتين أن يسيطر على هذه القبائل وقتل رئيسها وبذلك سقطت دولة الأزاتكة، وبدأت كنوزها من الفضة تتدفق إلى خزائن إسبانيا كمت نقل

كورتيز إلى أمريكا ما لم يكن بها من الحيوان والنبات، وأرسل إلى إسبانيا بعض ما وجد مما أدهش أوروبا، وكان كورتيز يطلب من الأهالي الكثير من الذهب بدعوي أنهم مرضي بالقلب، وأن علاجهم لم يكن سوى الذهب.

بعد أن قضى كورتيز على مقاومة سكان المكسيك الأصليين والقضاء على امبراطوريتهم الأزاتكة التي كانت تعتبر أقوى تجمع سياسي بين سكان أمريكا الأصليين، احتل كورتيز فيما بعد عام (1424-1425)م بلاد الهندوراس والتي ضمها إلى أملاك إسبانيا، كما أن رجاله احتلوا بلاد جواتيمالا، وتوغلوا في فتوحاتهم حتى وصلوا إلى كاليفورنيا

☒ رحلة ماجلان:

كان ماجلان من أصل برتغالي، شارك في بعض الرحلات الكشفية البرتغالية، وكانت رحلته الشهيرة حول العالم هي التي جلبت له الشهرة، وهي قام بها لحساب الإسبان بعد أن عارضه ملك البرتغال في تنفيذ فكرته القائلة بإمكانية الوصول إلى الشرق حيث توابل والخيرات عن طريق الالتفاف حول أفريقيا، وهو طريق الإتجاه غرباً عبر المحيط الأطلسي ثم الالتفاف حول أمريكا الجنوبية، وحينما عرض ماجلان فكرته هذه على ملك إسبانيا رجب حيث أنها ستحقق له هدفه في الوصول إلى منطقة التوابل دون حدوث سوء تفاهم بينه وبين البرتغال إذا سلك نفس طريقهم إلى الشرق، وتحمس ماجلان وزميله الذي كان يمثل العقل المفكر لماجلان وهو "روي دي فاليريرو" ولم يكن حماسهما لتنفيذ فكرتهما فحسب بل للرد على إهانة البلاط البرتغالي لكليهما وأعراضه عن أفكارهما، وجهاز لهما الملك شارل الأول خمس سفن بالرجال والسلاح والعتاد، وأقلعت السفن الخمس بقيادتهما في أغسطس 1519م.

بعد وصول ماجلان إلى سواحل أمريكا الجنوبية تعرض لمحاولة اغتيال من قبل قادة السفن الذين كانوا يحقدون عليه، ولكنه نجا منها وقتل اثنين منهم وترك الآخرين على الساحل، ثم سار جنوباً بمحاذاة الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية حتى وصل إلى نهايتها الجنوبية، ووجد مضيقاً عرف فيما بعد بـ "مضيق ماجلان"، فعبه إلى المحيط الهادى وقد سماه بالهادى لخلوه من الزوابع التي تكثر في المحيط الأطلسي، ثم واصل

سيره بالمحيط نحو من ثلاثة أشهر لاقى فيها كثير من المتاعب، وفي مارس 1521م وصل إلى مجموعة الجزر التي عرفت فيما بعد باسم الفلبين نسبة إلى فيليب ابن الإمبراطور، وبعد أن نجحت في ضم بعضها إلى إسبانيا لقي مصرعه نتيجة تدخله في المشاكل الداخلية لهذه الجزر.

وسارت الرحلة بعده في طريق عودتها لإسبانيا حيث عادت في سبتمبر 1522م أي بعد سنوات ثلاثة من إقلاعها، وقد نقص عدد رجالها بشكل كبير، وعانت المجموعة الباقية من الجوع والمرض وسوء الأحوال الجوية، وتعد رحلة ماجلان من أهم الرحلات التي سجلها التاريخ خاصة وأنها أكدت نتيجة هامة لم تؤكد كافة الرحلات السابقة لها وهي "كروية الأرض"، وحقيقة وجود القارتين الأمريكيتين الجديديتين، والتعرف على المحيط الهادى، وساعد ذلك على تشجيع الحكومة لمواصلة هذه الرحلات، وزادت أطماعها التوسيعية، وهجرة كثير من الإسبان الذين استوطنوا المناطق الجديدة، رغم خشية الإسبان من حدوث تصادم مع البرتغاليين مما جعلهم يقلعون عن تجارة التوابل كتجارة رئيسية، وذلك بعد أن اكتشفوا الكثير من مناجم الذهب والفضة.

☒ حركة الكشوف الانجليزية والفرنسية

كان من نتائج هذه الكشوف التي ذكرناها، أن قلت أهمية البحر المتوسط وبالتالي أهمية مصر والبندقية وغيرهما، وأصبح المحيط الأطلنطي مركزاً للتجارة بين أوروبا وأمريكا وصارت البلاد الواقعة عليه في وسط العالم التجاري، بعد أن كانت على حافته القصوي وأحست انجلترا وفرنسا وهولندا أنها لاتقل في الامتياز عن البرتغال وإسبانيا، فسعت إلى نيل نصيب من تلك الغنائم.

فأرسل الملك هنري السابع ملك انجلترا ومؤسس أسرة التيودور سنة 1496م " جون كابوت" للوصول إلى الهند من طريق الشمال الغربي فكشف "لبرادور" ثم كشف أكبر أبنائه جزيرة "تيو فوند لاند" وتقع على قرب شاطئ فلوريدا واستعمرت انجلترا بعد ذلك الجهات المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية، وفي السنة التالية قام كابوت برحلة ثانية اكتشف فيها الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية وقد نتج عن ذلك تمهيد الطريق لاستعمار

انجلترا لجزء كبير من العالم الجديد، كما تمكن الانجليز أيضاً من التقدم من خليج هدسن إلى داخل القارة فوصلوا إلى جبال روكي والمحيط المتجمد الشمالي.

أما بالنسبة لفرجينيا؛ فقد أرسل "سير والتر رالي" بتصريح خاص، أما "داس" و"بارلو" فنزلاً بجزيرة رونوق عام 1584م، وأطلقا على الإقليم اسم "فرجينيا"، وقد أرسلت سفن تحمل المؤن عام 1586م ولكنها وجدت المستعمرة مهجورة، إذ كان "دريك" قد عاد بالمستعمرين إلى إنجلترا، وأرسلت طائفة أخرى من المستعمرين بقيادة الحاكم جون هويت، وعند عودته عام 1591م لم يجد هويت سوي اطلال المستعمرة وخرائبها، وشهدت الفترة من عام 1602م إلى 1604م تنظيم عدد من الرحلات إلى أمريكا كان الأحوالها تلك التي قام بها جورج وايموث عام 1604م، وقد توجه وايموث لرؤية ساحل نيو انجلاند وتضمن تقريره المرضي ماثير الرغبة في تأسيس مزيد من المستعمرات .

أما بالنسبة لفرنسا فقد دخلت ميدان الكشوف الجغرافية متأخرة بعض الوقت عن البرتغال وإسبانيا وإنجلترا، حيث وصل جماعة من صائدي الأسماك من نورمانديا وبريتاني إلى سواحل نيو فوندلاند في حوالي عام 1500م، وهناك أخبار تفتقر إلى اثبات عن محاولات لارتياح خليج سانت لورانس في عامي 1518م، ويحتمل أن يكون جيوفاني دي فيراتزاني الذي أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا قد كشف الساحل الأمريكي من "كيب فير" حتى نيو فوندلاند.

أرسل فرنسوا الأول ملك فرنسا "جاك كارتيه" قصد الذهاب إلى الهند بالطريق الشمالي الغربي فكشف مصب نهر سنت لورانس سنة 1534م، وتلا ذلك استعمار الفرنسيين كندا وحوض نهر ميسي، مما أدى إلى الإصطدام مع الانجليز سنة 1754م، عموماً أن حركة الكشوف الفرنسية في العالم الجديد قد أدت إلى تنافس استعماري في أمريكا الشمالية مع الانجليز من أجل السيطرة والسيادة في العالم الجديد.

وحاول ماركيزدي لاروس سنة 1598م أن يؤسس مستعمرة في جزيرة سابل، وتم انقاذ الإحياء منهم بعد انقضاء خمس سنوات، وبعد أن منح "بنتجرافيه" و"شوقان"، و"دي مونت" في عام 1600م حق احتكار تجارة الفراء، قاموا بمحاولة فاشلة أخرى للاستعمار وكان هدفهم في هذه المرة "تادوساك" عند "سانت لورانس السفلي"، وارتاد "بونتجرافيه"

بصحبة "صمويل دي شمبلين" علاوة على ذلك الساحل الأكيدي، وفي السنوات الثلاث التالية، نظم "دي مونت" و "شمبلين" مكاناً للاستيطان في مدينة "سانت كروا"، ولكنهما انتقلا بعد فترة إلى "بورت رويال"، ثم تابع "شمبلين" رحلته على ساحل "تيو انجلاند" حتى "رأس كود" وعاد إلى فرنسا عام 1607م.

وأسس "شمبلين" باعتباره وكيلاً لدي "مونت" "مستعمرة كوبيك" عام 1608م وفي السنة التالية اصطحب معه جماعة من "هنود الجونكون والهيرون" وسار في مجري "تهر رشيليو" حتى وصل إلى البحيرة التي تحمل اسمه الآن، وارتاد "شمبلين" نهر أتاوا إلى ما يقرب من مائة ميل شمالى مدينة أتاوا الحالية وفي عام 1615م واستمر في إبحاره حتى وصل إلى بحيرة نيسنج ومن ثم إلى خليج جورجيا، وكان أول رجل أبيض اخترق تجارة الفراء، وفي عام 1615م وصل أربعة من رهبان "ريكوليه إلى كوبيك" وهكذا افتتحوا بداية النشاط التبشيري الفرنسي، وفي عام 1625م وصل خمسة من الجزويت وبدعوا نشاط هذه الطائفة.

نتائج الكشوف الجغرافية

1- كان البحر المتوسط طريق التجارة في العصور الوسطى ومركز النشاط السياسي، وبعد هذه الكشوف انتقل ذلك المركز إلى المحيط الأطلنطي الذي أصبح طريق التجارة العالمية في العصر الحديث وانتقل مستقبل أوربا التجاري من مدن البحر المتوسط كالبنديقية وجنوة إلى مدن الغرب والشمال إلى البرتغال وإسبانيا، ثم إلى هولندا وانجلترا التي كانت تقع على الطرق الغربي للعالم القديم، وأصبحت في قلب الدنيا بعد الكشوف الجديدة عرفت هذه الحركة الاقتصادية في التاريخ باسم "الثورة التجارية" "The Commercial Revolution"

2- تكونت إمبراطورية إسبانية وأخرى برتغالية وفتح باب الاستعمار أمام الدول الأخرى التي لم يلبث أن دخلت الميدان لتأخذ بنصيب من الأملاك الجديدة ودعا هذا التنافس في البحار حتى أصبحت الأساطيل البحرية من الأحوال عوامل التغلب والانتصار، كذلك سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرات لصالح مما أدى

إلى تدمير السكان وثورتهم في النهاية طلباً لدفع نير الاستعمار الذي كان فاتحة لسيل من الهجرة من أوروبا إلى ذلك الإصقاع.

3- عمل الإسبان والبرتغاليون على نشر الدين المسيحي والمذهب الكاثوليكي بين أهالي المسكيك وأمريكا الجنوبية، حيث وجدوا في ذلك أكبر تعويض للكنيسة الكاثوليكية عن نفوذها الذي ضاع في كثير من جهات أوروبا، على أثر انتشار البروتستانتية في كثير من جهاتها بعد ظهور حركة الإصلاح الديني.

4- ازدهرت كمية المعادن الثمينة ولاسيما الذهب والفضة واتخذت طريقها إلى أوروبا فحل النقد محل المبادلة في البيع والشراء وانخفضت قيمة العملة وارتفعت الأجور وأثمان السلع وتحسنت الحالة الاقتصادية في أوروبا نتيجة لازدياد النشاط التجاري وإنشاء الصناعات الجديدة وزيادة رؤوس الأموال.

5- أخذت المحصولات الجديدة ترد إلى أوروبا كالذرة والبطاطس والكاكاو والكيما والتبغ، وأصبحت عاملاً مهماً يلعب دوره في الحياة الاقتصادية، كما اضحت من الضروريات بعد أن كانت من الكماليات.

6- زادت أهمية علم الجغرافية، واتسع ميدان البحوث الجغرافية وتغيرت أفكار أهالي أوروبا عن الأرض وحجمها وشكلها، ومن فيها وما فيها، كما لفتت هذه الكشوف الأنظار إلى ضرورة تحسين بناء سفن، ووسائل إرشاد الملاحين حتى يقبلوا على الأسفار والتجوال في البحار، وهكذا أقبل الناس على البحث العلمي والتفكير الحر دون الاعتماد على الآراء القديمة التي كانت سائدة أو التقيد بأفكار العصور الوسطى.

7- كذلك اتسع ميدان علم التاريخ، فبعد أن كان مقصوراً في العصور الوسطى على عالم ضيق الأرجاء وهو المعروف في ذلك الوقت أصبح المجال أمامه واسعاً باتساع رقعة الراضي المعروفة على سطح لكرة الأرضية نتيجة للكشوف الجغرافية.

8- قاسي سكان البلاد الأصليين كثيراً من المستعمرين فكان هذا الاتصال كارثة عظمي عليهم وخاصة في أمريكا الشمالية، حيث كان يعيش الهنود الحمر، حيث قضت

على الكثير منهم الحروب، والأوبئة ومن بقي منهم عاش في معزل عن المستعمرين، وأخذ عددهم في التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل في غرب الولايات المتحدة وكندا غير أن الحالة كانت أخف وطأة في أمريكا الجنوبية، إذ بعد هدوء الزوينة الأولى زوينة الفتح والتملك، وأخذ السكان الأصليون يختلطون بالإسبان والبرتغال وتعلموا لغتهم واعتنقوا دينهم، ومن خلال الإمتزاج نشأ الجيل الحاضر بعكس ما حدث في أمريكا الشمالية.

9- كما ترتب على حركة الكشوف الجغرافية أن تحولت الثروة من طبقة ملاك الأرض إلى طبقة جديدة وهي طبقة التجار، وسيكون لانتعاش الطبقة البرجوازية التجارية دور مهم فيتطور نظم الحكم في العصر الحديث، وسياسياً قد نتج عن حركة الكشوف نشأة الاستعمار وازدياد تنافس الدول الأوروبية على السيطرة في العالم الجديد وآسيا وأفريقيا.

الفصل الرابع

حركة الإصلاح الديني

ظلت الكنيسة صاحبة الكلمة العليا في أوروبا طوال العصور الوسطى فكان لها المنزلة الأولى في جميع شئون الحياة، ففي عالم السياسة كان رجالها يشغلون أرقى والأحوال المناصب في الحكومات المختلفة، وكانت بأيديهم شئون التعليم، ومنهم المؤلفون والكتاب، ناهيك عما كان للبابا من السيطرة على السلطة السياسية، وما كان يدعيه من حق السيادة على الأباطرة والملوك، وقد بلغت البابوية منتهى قوتها في عهد "جريجوري السابع" و"أنسنت الثالث" حتى قال الأخير أنه لا خلاص للإنسان في العالم ما لم يخضع للبابا، فأنا قيصر وأنا الإمبراطور الحقيقي، صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض، وفضلاً عن هذا فقد طالبت البابوية بالخضوع المباشر للحكام الزمنيين الذين حددوا أهدافها، فلم تتردد جملة مرات من تجريد الإمبراطور المشاكس فردريك الثاني من نفوذه وحرمانه من رعاية الكنيسة، وطالب البابوات بسلطات تشريعية وقضائية أوسع لتطبيقها على المسيحيين، وأيضاً على الكفار، وأصدر البابا جريجوري التاسع أول تشريع رسمي للقانون البابوي للتأكد من تيسر إدارة ممتلكاته. وفي بداية القرن الرابع عشر ظهر ضعف البابوية وحركة الانقسام الكبرى في الكنيسة الغربية، مع انتخاب بابا في روما أو في سويسرا أو إسبانيا أو غيرها، وكذلك قيام حركة المجالس الدينية للإصلاح من شأن الكنيسة البابوية والعودة بها إلى مجدها القديم، واتجهت أذهان الناس نحو الانشقاق على البابوية، أدى إلى قيام ثورة لوثر في ألمانيا، وثورة كلفن في سويسرا.

كانت الكنيسة تهتم بظواهر الدين دون لبه، فكان الناس يعتنون باقتناء مخلفات القديسين والرسل والحج إلى مدافن القديسين، وتعذيب أجسادهم وبتلاوة الأدعية اللاتينية المغلوطة التي لايفقهون لها معني، ويحرصون على طاعة عمياء، بينما كان أثر هؤلاء يعيشون عيشة البذخ والترف والفساد، فكان البابوات يتحايلون على اصطياد الأموال بكل الوسائل فأصبحت الوظائف الدينية تباع بالمال دون النظر إلى مؤهلات الشخص المشتري لها وتهافت رجال الدين على الحياة الدنيا، وجمع الثروة لهم بوسائل مختلفة فضلاً عن

استحوذهم على المناصب الهامة في الدولة وكان البابا وحاشيته يتنعمون في روما تنعماً أثار الشكوك في أحقبة خلفاتهم لرسل المسيحية الأول، فلما جاءت النهضة تشجعت الناس على حرية النقد ومضي العهد الذي كان فيه القسيس مطاعاً من غير مناقشة.

ناهيك عما سبق؛ أنظر إلى "ليو العاشر" وبلاطه، فقد كان ليو العاشر من عائلة إيطالية عريقة، وصل لمنصب البابا عن طريقها في سن الثامنة والثلاثين، وقد تربى في ثراء فاحش، ولم يستطع تغيير نمط حياته بعد أن أصبح رئيساً للكنيسة، فكانت هوايته المحببة "الصيد" وهو محرم على رجال الكنيسة، كما يمتلك ضيعة خاصة وقصراً منيفاً وعدة حيوانات متوحشة بينها فيل أبيض، كمت كانت حاشيته الشخصية تضم 683 شخصاً، وكانت لديه فرقة موسيقية خاصة ومسرح خاص، باختصار كانت عيشته أقرب لعيشة الملك منها إلى عيشة البابا أن لم تتفوق عليها، ولإبقاء على هذا المستوي من المعيشة اقترض البابا ليو من البنوك بفائدة تصل إلى 40% فقد كان ريع خاص بيوت الدعارة وغيرها لا يكفي إنفاقه الضخم، لذا اخترع مناصب جديدة للبيع ليتسنى له سداد جزء من مصروفاته.

لم يكن مارتين لوثر الوحيد الذي وجه نقداً للكنيسة، ففي القرن الثالث شبه الكاردينال "بونا فينتورا" مدينة روما بالعاهرة، وقال أنها كالعاهرة تسكر الملوك والشعوب بخمرها، وأضاف أن روما تفسد الرؤوس الكبرى للكنيسة، وهؤلاء يفسدون صغار الكنيسة، وهؤلاء بدورهم يفسدون الشعب، ولا يجب أن ننسى دانتي الذي جعل في كل درجة من درجات جهنم فئة من رجال الكنيسة ومساوئهم، وسأل "البابا هادريان الرابع جون" من سالزبورج عما يقوله الناس عن حقيقة الكنيسة ومساوئهم، فأجابته هذا بصراحة: "أنهم يقولون أنها أقرب لزوجة الأب منها للأُم وأن البابا لا يطاق".

وكان رأي ألفاروبيلايو - وكان مستشاراً لبابا أفينيون - أن الكنيسة أعطت القدوة السيئة للناس، وأن الناس عندما رأوها بهذا القدر من الفساد كان رأيهم: ولم لأنكون نحن كذلك أيضاً، كما قرر ميكافلي قاعدة أنه " كلما كان الشعب أكثر قريباً من الكنيسة الرومانية قل دينه وتدينه"، وكتبت الأميرة كاتارينا للبابا جريجوري الحادي عشر "أنني لا أجهد نفسي في البحث عن مقر البلاط البابوي فرائحته النتنة تصلني أينما كنت".

وكان بروما أكبر عدد من الأبناء غير الشرعيين، وبلغ خطر رجال الكنيسة أن النساء كن يأخذون خناجر معهن حين يذهبن للاعتراف، وكتب إيراسموس في القرن السادس عشر حديثاً خيالياً من "البابا بوليوس" الذي يحاول عبور بوابة الجنة من خلال "القديس بطرس" الذي لا يتعرف عليه كخليفته بسبب خوذة الحرب التي يرتديها فيبدلها يوليوس بتاج البابوية الذي لا يتعرف عليه بطرس أيضاً، وأخيراً يظهر له بوليوس مفاتيحه دلالة أن له مكاناً بالجنة، وبعد أن يفحصها، بطرس يهز رأسه أسفاً قائلاً أنها لا تفتح أياً من أبواب الجنة. والغريب في ذلك الوقت أن لوثر أثر عدم ترك الكنيسة حتى اهتدي إلى فكرة أن مسيحية منقسمة هي بلا شك أفضل من مسيحية يرأسها بابا يعمل ضد تعاليمها، وأن يسترشد بالإنجيل رأساً أفضل من أن يقوده بابا فاسد الذمة، وحتى اليوم يختلف المسيحيون حول جدوي الخطوة التي اتخذها لوثر، وبذلك كان حكم لوثر ودانتي واحداً: "أن مشكلة الكنيسة تكمن في حب باباواتها للسلطة.

ظهرت هذه الروح على أثر حركة إحياء العلوم، وتناولت كل الأنظمة التي اعتادها الإنسان، وفي مقدمتها الأنظمة الدينية، فسلط المفكرون على نظام الكنيسة نور العقل والمنطق والحكمة، فزاع الناس في الجنوب ونبذوا الدين ظاهرياً، أما في الشمال فإن الناس لم يكونوا أهل عواطف وشعور، بل هم على الأكثر أهل رزانة وتعقل وتدين، فانكبوا على كتب الفلسفة، وعلى دراسة كتب الديانة الأولى، بلغتها الأصلية العبرية واليونانية واللاتينية، ولما لم يكن لأهل الشمال مدينة قديمة كأهل الجنوب، ولما كان كل ما أخذوه من المدينة جاء عن طريق الكنيسة دفعتهم النهضة إلى الإهتمام بمصدر مدينتهم وهو الكنيسة، فنقبوا عن الأصول الدينية وكتب القديسين الأوائل، وترجموا الإنجيل من اللاتينية إلى الألمانية، ولما وقفوا على حقائق دينهم، وقرنوا ذلك بما وصلت إليه الكنيسة من الانحطاط، ثارت حميمتهم يبعون إصلاحها وظهرت رغبة في خلق نوع آخر من المسيحية أبسط وأكثر روحانية، وقد ساهم نمو الشعور القومي في هذه الفترة في دفع الصراع ضد الكنيسة كمؤسسة عالمية إلى الأمام، وهذا يعني أن حركة الإصلاح الديني قد تزامنت مع مد القومية الصاعدة، عموماً أن الحواجز القديمة قد انهارت وعمت أوربا روح من التنوير والفكر التقدمي الذي كان متوهجاً تحت رماد المعرفة التقليدية. وكانت الكنيسة تطلب إلى

اتباع تعاليمها دون مناقشة، الأمر الذي أमत فيهم روح البحث والإبتكار، وأعمى إنسان العصور الوسطي من رؤية جمال العالم، فقد كان الجمال في نظره رجساً من عمل الشيطان، ولكن فقد صاحب نمو البرجوازية عملية إحياء العلوم العظيمة من فلك وميكانيكا وطبيعة وتشرح وغير ذلك من العلوم التي كانت في العصر الإقطاعي الخادم المطيع للكنيسة، لذا خرجت البرجوازية للنضال ضد دعاوى الكنيسة وضد الإقطاع.

أوجدت روح النقد جماعة لا ترضي عن الحال التي وصلت إليها الكنيسة، وأدرات الرجوع إلى الحياة المسيحية الخالصة، مسيحية القرون الأولى، أي العودة إلى حياة البساطة عندما كانت الكنيسة تغل بالدين والعقيدة، دون أن تدنسها الأطماع الدنيوية واعتماد الكتاب المقدس وحده كمصدر أساسي للعقيدة بعد أن رأت هذه الجماعة ما وصل إليه الكنيسة من تردي.

ما ساعد على نجاح حركة الإصلاح الديني، رغبته الأمراء في التخلص من تدخل الكنيسة والبابا، فقد كان لهما الحق في تعيين الرؤساء الدينيين، والتدخل مباشرة في الأحوال الشخصية، وجباية الأعشار من الممالك المختلفة وكانت أراضي الكنيسة في جميع أنحاء أوروبا معفاة من دفع الضرائب، وكانت إيراداتها ترسل إلى البابوية طرفاً فيها، إلى هذا الجانب أو ذلك، على الملوك والأمراء خاصة من دخلت البابوية في محالفات سياسية ضدهم إلى محاولة السيطرة على هذه الأراضي والسيطرة على إيراداتها، خاصة وأن اتساع هذه الممتلكات العقارية التابعة للبابوية وجودتها وراثتها، كان يسيل لعاب الملوك والأمراء الأوروبيين، وكانت حياة البابوات قد تحولت إلى حياة أمراء، وأصبح للبعض منهم أبناء غير شرعيين، وأصبح لآخرين محظيات، وبشكل يضيف من هيبة الكرسي البابوي.

أما السبب المباشر الذي ستعد حركة الإصلاح الديني فيرجع إلى بيع الكنيسة صكوك، والغفران كما عرفه "توماس أكويناس" -وهو من كبار مفكري الكنيسة في العصور الوسطي-، يقوم أساساً على قواعد ثلاث وهي: الندم والإعتراف والتفكير وهو الذي يكون بالصلاة والصوم والزكاة معني ذلك أن الغفران لا يتم إلا إذا مر بالمراحل الثلاثة السابقة، وكان الغفران عبارة عن صك من الورق، يبذل فيه الوعد للمذنب - لقاء قدر من المال- بانقاص المدة التي سوف يمكثها في "المطهر"، وكانت العقيدة قد أصابها الكثير من

الجمود ولم يحاول البابوات تنقيتها من الشوائب، ورفع المستوي الفكري والديني لرجل الكنيسة، واحتاج البابوات إلى مزيد من الثروات، للمحافظة على بلاطهم وفخامته، وكذلك لبناء الكنائس الجديدة، ومنها كنيسة القديس بولس في روما، فأخذوا في إصدار صكوك الغفران، وكان توزيع هذه الصكوك عن طريق المصارف في جميع أنحاء أوروبا أمراً مثيراً للنقد، كما كان توزيعها على الأهالي باسم غفران كل الذنوب، وحتى أكبر الكبائر يثير النفوس المؤمنة، ويحتم ضرورة الإصلاح.

ناهيك عن ذلك فإن البابوات صاروا يستعوضون عن التكفير (وهو الصلاة والصوم والزكاة) بعمل آخر، كالإشتراك في الحروب الصليبية، أو الحج إلى روما عند أول كل مائة سنة جديدة، فيمنح البابا الغفران الكامل للمحارب أو الحاج إلى روما، دون حاجة إلى استيفاء الركنين الأولين للغفران، وهما الندم والإعتراف، ثم صار الغفران يمنح إلى كل فرد يجهز محارباً من الصليبيين، ثم أخذت صكوك الغفران تصدر لأغراض أخرى متنوعة، كإنشاء الطرق وإقامة الجسور.

كانت ألمانيا من أكثر البلاد معاناة من مساوئ الكنيسة، فعلى سبيل المثال كانت أملاك الكنيسة كبيرة في جميع البلاد المسيحية، لكن في ألمانيا وصلت أملاك الكنيسة إلى نصف الممتلكات الألمانية جميعاً، وكانت الشرارة البادئة لمشاكل ألمانيا هي رغبة الأمير ألبرت في الاحتفاظ بكنيستي ماجدة بوج وهالبرج اشتاد - اللتين كان يرأسهما بالفعل - بجانب أطماعه الجديدة في كنيسة ماينس (وكانت كنيسة ألمانية رئيسية) وهو ما كان يخالف قوانين الكنيسة، وكان ألبرت على استعداد بدفع ثمن هذا المنصب، وكان "البابا ليو" في حاجة للمال لتجديد كنيسة القديس بطرس، ولأن ألبرت لم يكن يملك السيولة الكافية لدفع المقابل نقداً فإن "البابا ليو" سمح له بقرض كبير بسعر فائدة عال فوق العادة، وكانت المشكلة هي كيف يرد الأمير ألبرت هذا الدين؟، لقد سمح "البابا ليو" للأمير ببيع صكوك الغفران لمدة ثماني سنوات، بحيث يعود نصف عائدها للبنوك والنصف الآخر للبابا لأصلاح كنيسة القديس بطرس، وتم تعيين القس تتسل في مهمة التسويق لتلك الصكوك، وكان ممكناً لتتسل أن يستمر في هذه المهمة لولا ظهور مارتن لوثر الذي

لم يعجبه هذه الأحوال. ظهور بعض المصلحين الدينيين؛ أمثال: مارتن لوثر، زونجل، كلفن.

☒ مارتن لوثر "Martn Luther":

ولد مارتن لوثر في عام 1483م بإحدى قرى إمارة سكسونيا التابعة لألمانيا من أبوين فقيرين، ولكنه أتم تعليمه الجامعي، ثم دخل ديراً تابعاً لطائفة القديس أوغسطين سنة 1505م، وأتيحت له في سنة 1511م فرصة زيارة روما، ولكنه صدم لما رآه فيها من حياة التبذل وانهايار القيم الأخلاقية، وابتعاد حياة رجال الدين عن تعاليم المسيحية وشغل يعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتنبرج سنة 1512م، ونجح في التدريس والوعظ. صُدِمَ مارتن لوثر حين جاء أحد الرهبان إلى المدينة في عام 1517م لبيع صكوك الغفران وكان جاهلاً، وأدعي أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكب من آثام وخطايا، وحتى أكبر الكبائر، ولما كان الغفران لا يتم إلا بناء على توبة واعتراف وتكفير، بالإشتراك في الحروب الصليبية وفي الحج إلى روما وزيارة قبور القديسين، ثم نسي بعض رجال الكنيسة التوبة والإعتراف، وأصبح التكفير يعني شراء صكوك الغفران وكان الغفران منحة إلهية، ونسي البابوات ذلك وأصبحوا يضمنونه لمن يشتري الصكوك، فثارت نفس مارتن لوثر، وانتهز فرصة اجتماع أهالي "وتنبرج" بمناسبة عيد الشهداء، وبمناسبة تدشين "كنيسة الأمير ألبرت" وعلق على بابها احتجاجاً على بيع صكوك الغفران يشتمل على خمسة وتسعين فقرة، هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية، ونظرتها إلى الغفران، وهاجم فيه سلطان الكنيسة وتعاليمها، واصر على ضرورة اتخاذ الكتاب المقدس وحده دستور لتفسير أي موضوع يختلف عليه في العقيدة⁽²³⁾، أي أن لوثر هاجم الغفران بقواعده الثلاثة التي أشرنا إليها، ثم أخذ يبسط عقيدته في التبرير بالإيمان، وهي أن الغفران مربوط فقط برحمة الله.

ولم يمض أسبوعان على هذا الحادث حتى كانت قد ذاعت أنباء هذه الحجج وترجمت من اللاتينية إلى الألمانية، ولم يمض شهران حتى كانت أوروبا بأسرها تناقش هذه الحجج التي وضعها الراهب السكسوني، على أن لوثر مضي خطوة أخرى، ففي مناقشة مع "يوحنا تنزل" ومع غيره من علماء اللاهوت واقدروهم "يوحنا ايك أستاذ اللاهوت بجامعة

"أنجولشتات فقد لوثر نظام الكنيسة وسلطتها العليا، بل وتعاليمها كما وجه في سنة 1519م الدعوة إلى الأمراء وإلى الفرسان في ألمانيا لتزعم الإصلاح على الأسس الآتية:-

1- خضوع رجال الدين للسلطة المدنية.

2- ليس من حق البابا وحده أن يحتكر تفسير الكتاب المقدس.

3- ضرورة انقاص عدد الأديرة.

4- عدم الحج إلى روما.

5- ضرورة زواج القسس.

6- الطلاق أمر شرعي (أباحة الطلاق بين المسيحيين)

أدت هذه المناظرة إلى إعلان لوثر أن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة، ولم تكن معروفة أيام الرسل الأولين، فلما علم البابا بذلك، لم يسعه إلا إصدار قرار البابا علناً، فطلب البابا إلى الإمبراطور شارل الخامس تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر، فدعاه شارل إلى الحضور أمام المجمع الألماني، وطلب إليه أن يرجع عن زيغته، فأبى إلا أن يقتنعه بحجج من الكتاب المقدس، فحكم عليه بالطرد خارج القانون، واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، فحكم عليه بالطرد خارج القانون واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، ولكن سلطة المجمع كانت ضيقة، وكان كل أمير حراً في تنفيذ قرارات المجمع وإهمالها، ومن أجل هذا كان المهم رأي سكسونيا، الذي يعد لوثر من رعاياه.

بينما كان لوثر مهتداً بالقبض عليه في أية لحظة، حمله أصحابه إلى أحد حصون سكسونيا، في حماية أميرها، وفي مختبأ به عامين، وترجم في اثنتائها الإنجيل من الإغريقية إلى اللغة الألمانية، فكان ذلك أول كتاب قيم طبع بهذه اللغة، ففتح لها عهداً من جيداً، ومن ذلك الوقت سهل على الشعب أن يطلع على الكتابات الدينية بنفسه، وكثر أنصار لوثر فأن كل طبقة كانت تري مصلحتها في الإنضمام إليه، فكان الفلاحون يريدون التخلص من بقية قيود الإقطاع، والفرسان يريدون توسيع نفوذهم، والأمراء يرغبون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة، ومهاجمة الأراضي التابعة لها سنة 1523م، واستولوا

على أراضيها وقسموا بعضها على صغار الفلاحين وأخيراً فإن "جامعة وتنبرج" منحت مارتن لوثر منبراً يشرح فيه فكرة عقيدته، وبشكل ساعد على انتشار هذا الإتجاه الجديد.

لقد عُرفَ أنصار المذهب الجديد بـ "البروتستانت" أي المحتجين أو المعترضين، فانقسمت أوروبا إلى معسكرين أحدهما يزود عن الكاثوليكية، والآخر يدعو إلى البروتستانتية التي سرت في جميع أجزاء أوروبا الشمالية سريان النار في الهشيم، فعفا المذهب القديم منها، واعتنق الكثير من البروتستانتية وبدأ عهد الصراع والحروب اللاتينية في أوروبا وواصلت مؤلفات مارتن لوثر الناضجة في نظريات الكنيسة التشديد على اعتماد الكنيسة على كلمات الأسفار المقدسة، والقول بأن تعريف الكنيسة مستمد من هذا المفهوم والمعني؛ أي أن موضع الكنيسة الحق لا ينبغي تحديده على أي نحو في مدينة بالذات، لأن الكنيسة الحقة بمقدورها أن توجد حيثما تتردد كلمة الكتاب المقدس بصدق وتتغذي بها الكنيسة.

ولقد ارتبط بحركة مارتن لوثر ثلاث حركات أخرى، مرتبطة بالفكر والعقيدة وبالسلطة وبالمصلحة، حتى المادية، وكانت كالاتي:-

1- حركة الأنابابين" ظهر هذه الحركة في "ترفيكاوسسونيا" سنة 1521م على يد جماعة متطرفة من أنصار مارتن لوثر، على رأسهم "توماس مونزر" رأت أن تعمد الأطفال (تغطسيهم ثلاث مرات في الماء على اسم الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس) من أجل صلاحهم، لا يتفق مع تعاليم الإنجيل، حيث يجب أن تتوافر في المعمودية أركان الحياة الدينية الصحيحة من توبة وندم وإيمان، وهو ما لا يتوافر في الأطفال، ومن ثم فإن سر المعمودية لا يسمح إلا للبالغين الراشدين الذين اعتنقوا المسيحية فقط، على أنه عندما تطرف هؤلاء في دعوتهم، وقعت إضطرابات وإعتداءت جعلت لوثر يشعر بأن دعوة الإصلاح الديني في خطر، فخرج من مخبئه ليدعو المتطرفين لإلتزام الهدوء والحكمة.

2- حركة الفرسان "كان الفرسان قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم، فوجدوا في حركة لوثر فرصة لاسترداد نفوذهم وتوسيع ممتلكاتهم، فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من تماثيل، واستولوا على أملاكها وارضيها ولكن الأمراء قاموا بضربهم، والقضاء على حركتهم، حتى يبقوا هذه الممتلكات في أيدي الكنيسة إن كان الأمراء من الكاثوليك، أو

للاستيلاء هم بأنفسه مولاً أنفسهم عليها إن كانوا من أنصار لوثر، وأدى ذلك إلى ضعف الفرسان وتزايد قوة الأمراء. على أن لوثر امتنع عن تأييدهم، كما تحالف مع الأمراء ضدهم، وفي نفس الوقت لم تجتذب حركتهم تأييد الفلاحين الذين كرهوا منهم الإرهاق الذي الحقوا بهم، وعلى هذا فحين قامت هذه الحركة في سوابيا وفرنكونيا بقيادة "فرانزوفون سيكينجن" "وصديقه" "أليك فون هتن" وأخذوا في مهاجمة رجال الكنيسة رؤساء الأساقفة لانتزاع أراضي الكنيسة، وواجههم الأمراء بالقوة المسلحة، وقبل "فون سيكينجن"، وهرب "فون هتن" إلى سويسرا سنة 1523م حيث مات بها فقيراً.

3- ثورة الفلاحين كانت أعنف الحركات، وانتشرت في جميع أنحاء ألمانيا، فقد قامت في التيرول وادستريا وفرنكونيا وسوابيا، وهي عبارة عن سلسلة من الثورات التي قام بها الفلاحون فيما بين سنتي 1524م و1525م، وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية ولقد ربط الفلاحون بين الاتجاه الفكري والعقائدي لحركة لوثر، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومع حركة إعادة التعميد، فقاموا بثورات موجهة ضد السلطة للتحرر وللمعيشة في إحاء يقوم على أساس المساواة، وكان الفلاحون يعيشون في ضنك، فأصدر الفلاحون بياناً يحافظون على امتيازاتهم ويستغل الفلاحين، ثم أصدروا بياناً آخر في عام 1525م لإلغاء رقيق الأرض، وتحديد إيجار الأراضي، وتحديد الأعباء التي يؤديها للسيد الإقطاعي، وحق كل جماعة في اختيار وتعيين القسس في الكنائس، والإشراف على التعليم، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتقرير حق صيد الأسماك في الأنهار والقنوات التي يعملون في فلاحتها، وحق صيد الحيوانات في الغابات، كمت طلب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم في ضوء الكتاب المقدس، مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء، وقالوا "لن نكون بعد اليوم عبيدا؛ لأن المسيح جعلنا أحراراً".

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعاً شيوعياً على يد "توماس مونزر" حاكم "تريفياكو" وزعيم الآتابتيين والذي نصب نفسه زعيماً للفلاحين منذ أقام في مدينة مولهاوسن بألمانيا مجتمعاً شيوعياً يقوم على إلغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعه الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحي جديد على أساس المساواة

المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضي التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم. وهكذا لم يعد لوثر في نظر الألمان مصلحاً دينياً فقط، بل زعيماً قومياً أيضاً.

✘ أولريخ زونجل "Ulich Zwingli"

هو سويسري الأصل قاد أول دعوة للإصلاح الديني خارج ألمانيا في مدن سويسرا، وبدأها في زيورخ 1518م، دون أن يتأثر بتعاليم لوثر في ذلك الوقت؛ فقد هاجم صكوك الغفران، كما هاجم استخدام البابا لرجال سويسرا في حروبه، ودعا إلى زواج القسس، والاعتماد على الإنجيل دون تعاليم الكنيسة، وخالف لوثر في تفسير العقائد، وفيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في الكنيسة، وذهب إلى أن القربان حفلة تذكارية لا غير، ورأي أن يعهد بإدارة الكنيسة إلى يد السلطات التي تتولي شؤون الدولة، كما فعل لوثر، ولكنه رأي أن هذه السلطات هي السلطات الجمهورية الثورية، ولذا فإنه كان يسود الكنيسة السويسرية النظام التام رغم خضوعها للسلطة الزمنية وعرض زونجل سبعة وستين بنداٌ يدافع عنها وتلخص عقيدته، ولهذا فإن زونجل اعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية لكل المسيحيين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة منهم في الفصل في كل المسائل المتعلقة بالكنيسة والتعيين في الوظائف الكنسية وغيرها، على حين اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائماً الرئيس الأعلى للكنيسة، وقد قتل زونجل في الحرب التي دارت بين الكاثوليك والبروتستانت في 11 أكتوبر 1531م وقد أثر ذلك على الحركة اللوثرية، التي لم تنتشر في سويسرا، ولكن الصلح عقد بينهما في نفس السنة التي حدثت فيها المعركة والتي قتل فيها زونجل "معركة بابل" على أساس تعهد المقاطعات البروتستانتية بترك المقطعات الكاثوليكية تعيش في سلام، وحق المقاطعات البروتستانتية في الاحتفاظ بمذهبها الجديد، وأصبح من حق الولايات حرية اختيار المذهب الذي تتبعه.

✘ جون كلفن "Jean Calvin":

انتقلت حركة الإصلاح الديني إلى فرنسا على يد "كلفن" الذي ولد في فرنسا ودرس القانون بها، وفي عام 1534م خرج عن مذهب الكنيسة واتبع مذهب لوثر، واضطر إلى مغادرة فرنسا، لأن ملكها فرانسوا الأول أخذ يضطهد البروتستانت، وبعد قليل أقام في جنيف بسويسرا، ومنها أخذ اسمه وشهرته ينتشران في كل أوروبا، وسُمي أتباعه في فرنسا

"الهيجونوت" كان نظام كنيسة كلفن يقضي بادماج السلطة الدينية في السلطة المدنية، وإشراك غير القساوسة معهم في إدارة شئون الكنيسة، وتخويل الشعب حق اختيار الفائزين بها فكان هذا النظام ديمقراطياً من هذه الوجهة فأصبحت جنيف كعبة يؤمها طلاب الإصلاح والمضطهدون من الممالك المختلفة، لاسيما فرنسا واسكتلندا وإنجلترا والأراضي المنخفضة وألمانيا، فلما عاد هؤلاء إلى بلادهم عملوا على نشر مذهب كلفن، ونجحوا في ذلك على الرغم من أنصار الكاثوليكية الذين استماتوا في القضاء على المذهب الجديد، ولكنهم لم يفلحوا، وقد أدى ذلك إلى انقسام أوروبا إلى قسمين "بروتستانت وكاثوليك" كانت سبباً في حدوث كثير من الاضطهادات والحروب والثورات في كثير من دول أوروبا.

ولقد اتفق مذهب كلفن مع اللوثريين في ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده، ولكنه اختلف مع اللوثريين في ضرورة إجبار الآخرين على اعتناق مذهبه، كما أن كلفن اختلف مع زونجل في مسألة اتحاد الدولة والكنيسة، ورأي أن الكنيسة محتاجة إلى إدارة خاصة بها، تختلف عن الإدارة العثمانية للدولة، ولها ميدان روحي، ولا يجوز لأحد الطرفين أن يتدخل في ميدان الآخر، وكان كلفن يفضل الحكومة الإستقرائية، ويرى ضرورة طاعة المسيحيين لها، مادامت تحافظ على تعاليم الله، وقد نجح كلفن في أن يجعل من جنيف مركزاً لمذهب الإصلاح، وزاد اشعاع جنيف بإنشاء جامعها سنة 1559م، وأصبحت هذه المدينة مركز تعليم وتكوين الرعاة البروتستانت أو الهيجونوت، مما أثر في تاريخ الإصلاح الديني وتاريخ أوروبا في العصر الحديث.

وفي إنجلترا بدأ هنري الثامن حكمه لها سنة 1509م وكان عمره 28 سنة، وتزوج "كاترين الإرجوانية" -ابنة فرديناند وإيزابيلا-، وكان مسيحياً كاثوليكياً، أعطاه البابا سنة 1521م لقب حامي العقيدة، نتيجة لكتابته بحثاً رد فيه على لوثر، وكذلك ساند البابا، وكان الإنجليزي العادي لا يحي رجال الدين ويحقد على ما يتمتع به رجال الدين من امتيازات وأملاك، وكان الإنجليزي غير راضي عن كثرة الضرائب الباهظة وغير موافق على الحرب مع الأراضي المنخفضة. لما كانت "كاترين" قد أنجبت الأميرة "ماري تيور" لهنري الثامن ولم تنجب له ولداً، ولذلك فإنه كان يرغب في التزوج من "آن بولين" منذ عام

1527م والتي كان قد أغرم بها، وكان البابا ضعيفاً، وتسيطر عليه إسبانيا، ولما لم يستطع هنري الحصول من كنيسة روما على طلاق كاترين والزواج من آن، دعا البرلمان سنة 1529م لمساندته في نضاله ضد الكرسي البابوي، وجعلهم يصدرون القوانين الخاصة باستقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما، وعمل على تجريد رجال الدين من ممتلكاتهم حيث كانوا يأترون بأوامر الدينا، وتوزيع أراضيهم على الملاك والنبلاء، الذين أصبحوا أكثر الطبقات إستفادة من الإصلاح البروتستانتى في إنجلترا، وفي سنة 1534م صدر قانون السيادة وهو الذي جعل الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة وظلت مسألة العقيدة والطقوس الدينية في حاجة إلى حل، ولكي يكن الفقه الديني للكنيسة إنجليزياً لا ألمانياً وضع سنة 1536م أول مجموعة للطقوس الدينية لكنيسة إنجلترا.

الفصل الخامس

الإصلاح الديني الكاثوليكي

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكي والتنكيل بهم إرهاباً لهم ولغيرهم ولإجبارهم على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية، وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطى واستخدمتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة، وأي فكر قد يظهر ولكنها ظهرت بشكل جديد وبسلطات واسعة حين طالبت إسبانيا إلى البابا في 1477م بإنشائها في بلادها لمحاكمة المسلمين واليهود هناك وفي 1497م خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة وأصبحت تحت سيطرة ملوك إسبانيا الكاثوليك وأثبتت فعاليتها في الإرهاب حتى أن كنيسة روما فكرت في إنشاء محكمة مماثلة في مدينة روما، وهكذا أصدر "البابا بول الثالث" 1542م مرسوماً بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية منه ستة كرادلة ثم زيد عدد أعضائها إلى اثني عشر وأشرفت على إرسال المفتشين الكاثوليك إلى كل مكان.

وكان يتعين فهم محاكم التفتيش البابوية من وجهة النظر الوسيطة المعاصرة التي لم تعرف أي حرية للتعبير أو الفكر في المسائل التي تمس جوهر الإيمان، ومن ثم فإن أي انحراف عن الإيمان كما حدده البابا، لم يعتبر فقط ضد السلطان القائم الذي رغم تفرده باحتكار جميع المسائل المتصلة بالأسس الدينية للمجتمع، ولم تقتصر البابوية اهتمامها على التعبير عن مثل هذه المزاعم الإحتكارية في إنشاء محاكم التفتيش، بل عملت البابوية على التدخل والسيطرة على منجزات أعظم عقول فلسفية ولاهوتية في أوروبا. وبالتالي فإن ظهور محاكم التفتيش التي تعتبر الوسائل السلبية التي لجأت إليها الكنيسة الكاثوليكية في روما في تنفيذ الحركة الإصلاحية وقد استخدمت هذه المحاكم لوقف انتشار البروتستانتية خاصة في إيطاليا وإسبانيا ومارست أعمالها بقسوة وسارت تصدر الأحكام الجماعية باحراق المتهمين أحياناً، إضافة إلى التعذيب والسجن ومصادرة الممتلكات، فقد انتزع فرديناند وإيزابيلا من النبلاء الإسبانين حقوقهم ومن المدن الإسبانية استقلالها، واقتصرت حقوق المجالس الشعبية "الكورينز" على تحديد أسباب الشكاوي،

ومن دون الخوض في تفاصيلها أو العمل على إزالتها، والجدير بالذكر أن إيزابيلا هي التي وأوفدت كولمبس، وأنجبت أربع بنات، هن "ماري وإليزابيث وجون وكاترين" وابن واحد توفي صغيراً، وكانت لشدة تدينها ترتدي أسفل ملابسها الملكية ملابس خشنة من الصوف وتقوم بزيارة الأديرة والكنائس وأعدت بناء الكثير منها.

كانت إيزابيلا تعاقب الرهبان الخارجين على تعاليم الدين بقسوة وتجبرهم على التعب والصلاة، والبعد عن مباحج الحياة، كما كانت تصطحب بناتها وتلبسهن الملابس الخشنة السوداء التي كانت تغطي أجسادهن الصغيرة من الرأس إلى أصابع أقدامهن، ولقد لقتنهن مبادئ القراءة والكتابة اللاتينية وطرق العزف والرقص على التامبورين والجيتار وغيرهما، وقد تزوجت إليزابيث من ملك البرتغال وعندما توفيت عوضاه عنها بماري وقد أدى هذا الزواج إلى تحالف البرتغال مع إسبانيا ضد المسلمين واليهود فاضطهدوا وطردوا من البرتغال على ماسبق أن اضطهدوا وطردوا من إسبانيا. وقد استطاعت محاكم التفتيش أن توقف توسع البروتستانتية في إيطاليا وإسبانيا وأثارت الرعب في نفوس بروتستانت ألمانيا وشمال أوروبا مما جعلهم أشد مقاومة لعودة الكاثوليكية أما في الأراضي فثاروا عليه وظلوا يحاربونه حتى ظفروا بالاستقلال.

يعتبر "اجناتيوس ليولا" هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذي سيكون لها دوراً كبيراً في المحافظة على الكاثوليكية وتدعيمها وجمع حوله عدد من الزملاء وقرروا جميعاً أن "يحاربوا من أجل المسيح" كان ليولا من أصل إسباني ومن النبلاء وعاش في بلاط فرديناند وإيزابيلا ثم التحق بجيش شارك الخامس، وحارب ضد قوات فرانسوا الأول، وأصابه جرح أجبره على أن يترك حياة الجندية فاتجه إلى الدين، ودرس حياة الفرنسيين، ودرس اللاهوت حتى حصل على درجة الدكتوراه من باريس عام 1534م وكونوا رابطة بينهم، وعزموا على السفر والمعيشة في بيت المقدس لنشر الدين المسيحي في بلاد الشرق الإسلامي⁽⁵⁹⁾، وأنشأوا حزباً باسم "حزب المسيح" جعل قوامه النظام والطاعة والغيرة على المبدأ والدفاع على البابوية وسلطتها، وكانت الوسائل التي اعتمد عليها تخلص في الدعوة بالكفاية والخطابة والتعليم وليست المعتقدات الدينية الكاثوليكية المقررة، وقد نجح الجزويت في عملهم نجاحاً كبيراً وساعدوا على رد تيار البروتستانتية في كثير البلاد غير

أن تجردهم من أي فكرة وطنية وانصرافهم إلى غرض ديني هو خدمة الكنيسة والبابوية وضعهم موضع الشك إزاء الحوكومات الكاثوليكية فتعصروا لنقمتها وسخطها، وانتشر اليسوعيون ودعائهم في ألمانيا والنمسا وإسبانيا وفرنسا، وفي كل مكان في أوروبا وساهم اليسوعيون في خدمة الكاثوليكية وأصبحوا شبه تنظيم عسكري.

ويرجع الفضل إلى اليسوعيين في إصابة المذاهب البروتستانتية بكنيسة في فرنسا وألمانيا وفي هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن في إنجلترا واسكتلندا، وكذلك في استئصال البروتستانتية من إيطاليا وإسبانيا، أما بولندا فقد نجحوا نجاحاً فائقاً وعلى حساب المذهب الأرثوذكسي ودعموا هناك المذهب الكاثوليكي، حتى أصبحت بولندا إقليمياً كاثوليكياً بين ألمانيا البروتستانتية في الغرب، وروسيا الأرثوذكسية في الشرق ولم تقتصر جهودهم على أوروبا فحسب، لقد عملوا على نشر الكاثوليكية فيما وراء البحار وفي العالم الجديد والشرق الأقصى.

كان مجلس ترنت مجلس كنسي اجتمع بأمر الإمبراطور لإيجاد قاعدة التفاهم والوفاق مع اللوثرين، وظل المجلس ينعقد تارة ويتأجل أخرى، حتى بلغت جلساته خمس وعشرين جلسة كان آخرها في ديسمبر 1563م، ولقد انقسمت قراراته التي أصدرها أثناء الفترة (1545-1563)م إلى قسمين؛ أحدهما: متعلق بنظام الكنيسة؛ حيث تقرر استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة، وحرّم زواج القساوسة، ومنع أن يجتمع عدد من الأسقفيات في يد شخص واحد، وحدد سن من يشغل منصب الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة، كذلك حرم تداول الكتب البروتستانتية في الممالك الكاثوليكية، وفتح المدارس لتعليم رجال لدين واجباتهم وثقافتهم ورفع مستواهم الديني والخلقي والفكري، أما القسم الثاني فهو متعلق بالعقائد؛ حيث تقرر أن تكون الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس هي الترجمة الوحيدة المعتمدة، وأن تبقى أسرار الكنيسة سبعة لا سرين كما أوردها البروتستانت، وأن المرجع في القضايا الإيمان والعقيدة ليس الكتاب المقدس وحده، وإنما لكتاب المقدس والتقاليد الكنيسة واجتهادات الكنيسة، أملاً في أن تؤدي هذه الرسائل إلى تدعيم مركز الكاثوليكية وشحن سلاحها للصراع القائم بينها وبين المذاهب الأخرى، وبذلك حدد المجلس في قرارته موقف الكنيسة بوضوح من القضايا المطروحة.

صلح أوجزبرج انعقد المجلس الإمبراطوري في مدينة أوجزبرج لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستانت، وهو ما عرف باسم "صلح أوجزبرج"، والذي قرر فرض مذهب ديني واحد على جميع المقاطعات الألمانية، وعدم استخدام العنف ضد الولايات الكاثوليكية، وأن من حق كل فرد يعتنق مذهباً مخالفاً لمذهب الولاية التي يقطنها أن يهاجر إلى ولاية أخرى تدين بالمذهب الذي يعتنقه، وله الحق في أن يأخذ معه أمواله، ويحق له أن يبيع أمتعه قبل رحيله وألا يضار في شرفه، وأحكام هذا الصلح تسري على الكاثوليك واللوثريين، كما قرر الصلح أن أملاك الكنيسة الكائنة في المقاطعات التي تحولت إلى اللوثريين قبل 1552م تبقى كما هي، وأما أملاك الكنيسة التي أخذت منها بعد هذا التاريخ، فتعود إليها وأعطى للأساقفة حق اختيار المذهب الديني الذي يرغبون في اعتناقه.

الفصل السادس

الحياة النيابية في بريطانيا

أولاً: الدستور البريطاني

وبريطانيا أقدم دول العالم عهداً بالدستور الذي كان أساساً لنظام الحكم فيها، ومنذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي كانت مبادئ الدستور البريطاني موضع إعجاب العالم كله، حتى أصبحت نموذجاً تحتذيهِ أغلب الدول النيابية الحديثة.

ومن أهم خصائص الدستور البريطاني ما يلي:

- 1- الدستور البريطاني أقدم دستور في العالم، إذ يمتاز عن غيره من الدساتير العالمية بالعراقة، حيث أنه كان قائماً منذ صدور الماجناكارتا عام 1215م.
- 2- عدم الفصل التام بين السلطات الثلاث (التشريعية، التنفيذية، القضائية).
- 3- للدستور البريطاني ميزة تطبيق روح القانون، أكثر من غيره من دساتير العالم.
- 4- لا يوجد شخص فوق القانون مهما كانت مكانته حتى الملك نفسه، وهذا لأن الملك ما كان ليُصبح ملكاً إلا بفضل القانون.
- 5- تحديد وتوزيع الدستور لجميع السلطات حتى سلطات الملك ذاته، وعليه فقد كانت جميع السلطات تمارس من خلال القانون.
- 6- يخالف الدستور البريطاني جميع دساتير العالم في أنه مزيج من عادات وتقاليد سياسية نالت مع الزمن تقدير الشعب واحترامه، وأنه من نصوص تشريعية تقررت في عهود مختلفة.
- 7- لم يتم تكليف هيئة نيابية (لجنة دستورية أو جمعية تأسيسية) مهمة تحرير دستور يكون حداً فاصلاً بين عهدين، عهداً ماضياً من الاستبداد، وعهداً قادماً بالحرية، بل جاء الدستور البريطاني نتيجة جهود أجيال متلاحقة على مدار مئات السنين، وهو ما يعني أن بريطانيا لم تنل حريتها مرة واحدة، ولكن نالتها على فترات متتالية.

8- الدستور البريطاني دستوراً مرناً، حيث أن قوانينه الدستورية تحتاج فى تعديلها إلى الإجراءات العادية المتبعة فى تعديل أى قانون عادى، فلم تكن هناك حاجة ماسة إلى إحداث تعديلات جوهرية إلا فيما يختص بقوانين الانتخاب، إذ أن قوانين الانتخاب دائما ما تحتاج إلى قواعد صارمة لتحديد شروط الناخبين والمنتخبين، ولكن يجب أن يُلاحظ أنه عند تغيير أو تعديل أى قانون من قوانين الدستور البريطانى يجب أن يحصل على موافقة جميع السلطات فى ظل اتفاق شعبى على ذلك، وهو مايعنى أن الدستور البريطانى دستوراً مرناً وقابلاً للتطور فى أى وقت.

9- الدستور البريطانى هو الدستور العرفى الوحيد فى العالم، وهذا لغلبة الأعراف الدستورية (العادات والتقاليد) على الدستور البريطانى، ولقد اعتادت الهيئات الحاكمة استعمال هذه الأعراف حتى أخذت صفة الإلزام.

10- الدستور البريطانى إذن دستوراً غير مكتوباً، إذ أن بريطانيا هى البلد الديمقراطى الوحيد الذى لايمكك دستوراً مسطوراً، حتى قيل أنه لا يوجد دستوراً بريطانياً على الإطلاق، وهذه المقولة ذات وجهان:

- الأول: أن الغالب على الدستور البريطانى أنه مستمد من الأعراف والعادات والتقاليد القومية والقيم البريطانية، حتى عُرف هذا الدستور بالدستور العرفى.
- الثانى: هناك نصوص مكتوبة لقوانين عديدة، مثل الماجناكارتا 1215م، قانون الحقوق 1689م، قوانين الانتخاب، قوانين الصحة والاقتصاد والمالية وغيرها، والتي تُعدّ مصدراً أساسياً للدستور البريطانى.

من الملاحظ أنه خلال القرون الماضية كانت هناك محاولات عديدة لتدوين الدستور البريطانى فى وثيقة واحدة، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وكان ذلك لأسباب عديدة منها، أنه ليس هناك سبب يدفع البريطانيين لتدوين دستورهم، فبريطانيا ليست دولة حديثة الاستقلال حتى تكتب لنفسها دستوراً يؤكد وجودها، بل أن النظام البريطانى لايريد أن يقطع صلته بالماضى، وحتى لو نجح البريطانيين مستقبلاً فى تجميع دستورهم فى وثيقة واحدة، فإن الدستور البريطانى سيظل يحتفظ بوصفه دستوراً غير

مُدَوَّنًا، إذ أن التدوين الذي يصف أي دستور هو ذلك التدوين الصادر من السلطة المختصة وقت إصدار القوانين.

خلاصة القول أن الدستور البريطاني بمواده المكتوبة كالجسد الضئيل الذي يطفو على قاعدة كبيرة جداً من العادات و التقاليد، أو هو كالكائن الحي الذي يكبر كلما صدر قانون جديد.

يستمد الدستور البريطاني حدوده وقواعده من ثلاثة مصادر: وهي السوابق القضائية، والغرف الدستوري، والقوانين الأساسية.

ثانياً: البرلمان البريطاني

يتكون البرلمان إما من مجلس تشريعي واحد، وإما من مجلسين تشريعيين، وفي بريطانيا كان البرلمان يتكون من مجلسين إذ كانت بريطانيا أول من أخذ بنظام المجلسين والمعروف بالنظام البرلماني الثنائي، ذلك النظام الذي كان له من المميزات مادفع العديد من دول العالم للأخذ به مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وإيطاليا ومصر الآن، وهذا النظام ما زال معمولاً به في بريطانيا، ومن أهم هذه المميزات مايلي:

1- يمنع نظام المجلسين من استبداد السلطة التشريعية نفسها، فإذا استبد أحد المجلسين تشريعياً، أوقفه المجلس الآخر أو حد من سلطته.

2- يقلل نظام المجلسين من حدوث صدام مابين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، فإذا حدث نزاع ما بين أحد المجلسين (ممثلاً للسلطة التشريعية) وبين الحكومة (ممثلاً للسلطة التنفيذية) يقوم المجلس الآخر بدور المल्पف للنزاع.

3- اتفاق البرلمان بمجلسيه في الرأي غالباً يمثل الرأي العام ويعكس وجهة نظر الشعب.

4- يسمح نظام المجلسين أن يكون للطبقة الأرستقراطية تمثيلاً خاصاً بها في أحد المجلسين، يعرضون فيه طلباتهم ويحصلون به على حقوقهم وحررياتهم، وهو ما يساعد على عدم تعرضهم ووقوفهم في وجه حريات وحقوق العامة.

ونظراً لأن العالم قد أخذ عن بريطانيا نظام البرلمان الثنائي، لذلك يفخر الانجليز بتسمية البرلمان البريطانى باسم أم البرلمانات فى العالم **The Mother of "Prlaments"**.

من التقاليد البرلمانية البريطانية:

1- لايجوز للملك دخول البرلمان وحضور جلسات، إذ كان العرش يرسل خطاباً يوضح فيه أنه وجد من غير المناسب . بالنسبة له . أن يحضر الجلسة الافتتاحية للمجلس الجديد، وعليه تم تكليف لجنة رسمية بالافتتاح والإشراف على البرلمان، ولكن كانت هنالك حالات معينة يجوز للعرش أن يحضر فيها الجلسات البرلمانية منها ما يلي: القاء خطبة العرش فى إفتتاح الدورة البرلمانية، وإن أصبح ذلك من اختصاصات رئيس الوزراء أن يُلقى مثل هذه الخطب باسم الملك . ناهيك عن حل البرلمان.

2- وجود جندي من الشرطة فى ركن من أركان مجلس العموم، حيث أنه فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى تم إعادة طلاء البرلمان من الداخل، ونظراً لعدم جفاف الطلاء ،فقام المجلس بوضع ذلك الجندي لينبه الأعضاء أثناء دخولهم وخروجهم،ومن ذلك أصبح وجود ذلك الجندي تقليد برلمانى.

3- على الرغم من زيادة أعضاء مجلس العموم من وقت إلى آخر، إلا أن مقاعد مجلس العموم ظلت كما هى من حيث عددها منذ أن أنشئ المجلس حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من تقديم بعض الأعضاء للعديد من الطلبات لزيادة عدد المقاعد، إلا أن رئيس مجلس العموم رفض ذلك وبشدة، معتبراً بقاء الحال على ما هو عليه من التقاليد البرلمانية.

4- على الرغم من انتشار المقولة التاريخية (الملك فى البرلمان) **"The King in Parliament"**، إلا أن ذلك قد تغير، إذ أصبحت الجلسة الافتتاحية تبدأ بكلمة من رئيس المجلس المنحل يُخبر فيها الأعضاء أن الملك يشعر أنه من غير المناسب أن يحضر الجلسة الافتتاحية للمجلس الجديد، لذلك تم تكليف لجنة رسمية مكونة من خمس لوردات يُعرفوا بإسم المفوضين بافتتاح وعقد البرلمان، ثم يقوم الحاجب بقراءة

خطاب التفويض أولاً، ثم يُطلب من أعضاء مجلس العموم بناءً على الأمر الملوك أن يختاروا من بينهم رئيساً لمجلسهم (المتحدث)، ثم يقرأ رئيس المجلس الصلوات وهو جالس ويقسم - طبقاً للقانون - أن يحافظ على النظام داخل جنبات المجلس، ثم يتم تسليم شهادة بالست عشر لورداً - وهم لوردات اسكتلندا -، بعد ذلك يقدم قائد الجيش للبرلمان قائمة بأسماء اللوردات الروحانيين وتترك القائمة بالأمر على المنضدة، وأخيراً يقسم باقي اللوردات، وعقب ذلك ينفض المجلس في الساعة الرابعة والنصف، على أن يجتمع ثانية في اليوم التالي الساعة الثانية ظهراً.

5- قراءة الصلوات من الكتاب المقدس داخل البرلمان بمجلسيه، وكانت تستمر لمدة خمس دقائق.

6- يُمنع على الأعضاء منعاً تاماً قراءة الصحف، أو تحرير أية خطابات، أو المرور أو التردد بين المقاعد أثناء انعقاد جلسات المجلس.

7- تواجد أقدم ثلاثة من أعضاء المجلس يرتدون الأرواب والشعر المستعار، وجلوس هؤلاء الأعضاء أسفل منصة الرئيس. ند خروج عضو من أعضاء المجلس عن اللهجة المألوفة وتجاوز في كلامه مع غيره من الأعضاء، تعلق الأصوات داخل المجلس "لا تضرب تحت الحزام".

ثالثاً: النظام الحزبي في بريطانيا

من المعروف عن النظام الحزبي في بريطانيا أنه نظام ثنائي الأحزاب " Two-Party System"، وهذا النظام الذي يتوافر فيه شروط عديدة من أهمها:

- 1- جود حزبين كبيرين متعادلين في القوة تقريباً.
- 2- يجب أن يتمكن أحد هذين الحزبين من كسب الأكتريّة اللازمة في الحكم دون مساندة حزب ثالث.
- 3- تناوب الحزبين على الحكم.
- 4- كل حزب يمثل مجموعات مختلفة من الشعب.

الجدير بالذكر أنه منذ أن ظهرت فكرة الأحزاب بمعناها الحديث في بريطانيا، وقد وُجدَ حزبان كبيران، ففي القرن الثامن عشر كانت جماعة الويچ وجماعة التورى، وفي القرن التاسع عشر تحول اسم هذين الجماعتين، فأصبحت جماعة التورى تُعرف بالمحافظين، بينما عُرفت جماعة الويچ بالأحرار، وفي بداية القرن العشرين كان الصراع بين المحافظين والأحرار، حتى ظهر حزب العمال والذي كان ظهوره ايذاناً بنهاية حزب الأحرار. يعتبر الحزبان البريطانيان صديقين وخصمين في نفس الوقت، فهما صديقين متى تعاوننا من أجل مصلحة البلاد، وهذا لا ينفى شدة تنافس كل منهما مع الآخر من أجل الوصول للحكم، وهذا التنافس بين الحزبين أفضى إلى ما سُمى بالأغلبية البرلمانية، والتي تعنى حصول الحزب على معظم المقاعد في مجلس العموم ولم تكن العلاقة بين الأحزاب السياسية في بريطانيا دائماً تسير في طريق الصراع الحزبي والعراك السياسي، لكن كانت تشوب هذه العلاقة الكثير من المجاملة، تلك المجاملة التي ظهرت بشكل جلي في خطبة ألقاها بلفور رئيس الوزراء البريطانى في عام 1902م : " أن الاعتدال في طبع الانجليزى ، يساعده على أن يكون خصماً سياسياً دون أن يتعرض لخصمة ويصفه بكل نعت مُشرف، فالانجليز في السياسة كالمحاميين في المحكمة، يعتقد كل منهم بصحة رأيه، ولكنهم لا ينسون أبداً واجب المجاملة فلا يكيل أحدهم الشتائم لمناظره، وإذا خرجوا من دار المحكمة خرجوا أصدقاء".

الفصل السابع

الثورة الفرنسية

كان الأشراف يستأثرون بأعلى مناصب الدولة، مدنية كانت أو عسكرية، ومع ذلك كانوا يعفون من أعباء الضرائب إلا القليل منها، كما كانت لهم حقوق وامتيازات من بقايا النظام الإقطاعي، كما كان في معظم ممالك أوروبا الأخرى، ثقل الوطأة على الأهالي، ولقد كان ثمة معضلة أخرى ذات صبغة اقتصادية حارت حكومات النظام القديم في علاجها، ذلك أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة مضمونة، فمع كل ثروة فرنسا الزراعية، وترف طبقتها العليا، كانت بعض طبقات الأمة عرضة بين آن وآخر لفتك المجاعات وأهوالها.

وكانت الإدارة المالية تتميز بدرجة من الفوضى بلغت حد عدم التمكن من وصفها إلا على وجه التقريب، وأرجع المعاصرون مسئولية ذلك إلى إسراف البلاط ومكاسب رجال المال، وكان من الممكن الاقتصاد، ولكن إدارة الدين طالبت بمبلغ 318 مليون، أي ما يزيد على نصف المصروفات إلى هذا الحد إلا بإعلان الإفلاس، فكانت الضرائب، وكانت هناك بعض الأقاليم تدفع أقل من غيرها، وكان البرجوازيون يدفعون أقل من الفلاحين والنبلاء ورجال الدين أقل من ذلك أيضاً.

ومن أجل الإصلاح في فرنسا اقترح "ترجو" إلغاء نقابات طوائف العمال، وإطلاق تجارة الحنطة من كل قيد، ثم جاء "تيكر" خلفه في الوزارة "والذي ظفر بحب الجمهور إبان اشتراك فرنسا في حرب الإستقلال الأمريكي، بدفعه نفقات تلك الحرب بالقروض، بعده جاء "كالون" والذي قدم مشروعاً يأخذ ضريبة مالية على عقار من الأرض "ضريبة العقار"، فأثار ذلك الأرستقراطيين وطلبوا بدعوة "مجلس الطبقات" الذي لم يجتمع منذ عام 1614م. في كان الملك قد فقد كل هيبة، فكان يقضي وقته في الصيد وفي الأشغال اليدوية، وكان معروفاً بالشراهة في الأكل والشرب، عزوفاً عن الناس وعن التسلية، وكانت الإشاعات قد انتشرت عن أن "ماري انطوانيت" قد تسببت بمسألة العقد سنة 1785م في أن يفقد سمعته، وتفادى كالون الملك وفكر في جمع مجلس من الأعيان والنبلاء، إلا أن

إثارة الإرسنقراطيين في اجتماعهم 1787م، ومهاجمة الأعيان مشروع كالون وبرغبة الملك فقد أقاله الملك في نفس العام.

كانت الأزمة الاقتصادية من الأسباب التي عجلت بالثورة، فمنذ عام 1778م كان الإنتاج قد اعترضته مشاكل نشأت من المشكلات الزراعية، وفي عام 1785م مرت البلاد بموسم الجفاف والقحط في أنحاء البلاد، وانخفض إنتاج الحبوب إلى أدنى مستوي عرفته فرنسا، وأخذت أسعار الخبز في الإرتفاع المطرد، وكانت الدول بشكل عام؛ ومنها فرنسا تمارس سياسة تجارية، و تمارس منع الإستيراد، وتفرض الضرائب المرتفعة، على الواردات وكانت هناك قوانين الملاحة، واحتكار المستعمرات، الأمر الذي ساعد على تكديس رؤوس الأموال والاحتفاظ بها داخل البلاد، وبخاصة فيما يتعلق بمكاسب النقل، وإنشاء الورش الصناعية.

وساعد الأمراء وحاشيتهم صناعة الكماليات التي كانت لازمة للطبقات الحاكمة، ولكن المجهودات التي بذلت من أجل الإنشاءات البحرية والنسيج والصبغة، ونتيجة لطلبات القوات المسلحة، وعمليات منح الضرائب المباشرة لبعض الأفراد عن طريق الإلتزام، وبمنح الموردين عمليات القيام ببعض الخدمات العامة، وحتى تزود الجنوب بمرتباتهم، ساعدت كلها على ازدهار الخدمات العامة، وحتى تزود الجنود بمرتباتهم، ساعدت كلها على ازدهار متزايد لرجال المال والمصارف.

اضطرت الحكومة أمام ازدياد ديونها إلى إعادة صهر القطع الذهبية سنة 1775م، لكي تقلل من وزن القطع الجديدة، ساعدت ذلك على زيادة الإستهلاك من ناحية، وتوفر الأيدي العاملة من ناحية أخرى، وكان الميزان التجاري لفرنسا في غير صالحها، إذا أن وارداتها كانت أكثر من صادراتها، ورغم نمو بحريتها فإن وسائل النقل الداخلي فيها كانت تتميز بالتخلف، نظراً لقلّة القنوات الصالحة للملاحة، وقلّة طرق المواصلات، رغم إستخدام السخرة في إنشائها، وكانت الجمارك الداخلية ودفع الرسوم فيها تزيد من الإنفصال بين المقاطعات. زاد من سوء الحالة القرار الصادر في ديسمبر بإعلان بيع ما قيمته 400 مليون جنيه من الممتلكات المنزوعة من الكنيسة. واحتفظت الكنيسة في فرنسا بثراوتها وامتيازاتها، ورجال الدين كانوا يمثلون أقلية صغيرة، وقد عددهم في

فرنسا بما يقرب من 130 ألف شخص، موزعين مناصفة بين إقامة الشعائر وبين الجماعات الدينية، ولنفوذ رجال الدين كان النبلاء يعينون أبناءهم في الأسقفيات والأبرشيات والكنائس، وشكا صغار رجال الدين وجمهور المسيحيين من عدم صرف إيرادات الكنيسة في أوجهها، وكان رجال الدين يكونون " جماعة ولا يكونون " طبقة "، وجاءت الثورة الفرنسية لتهدأ أركان الكنيسة أكثر وأكثر بدعوتها للحرية المطلقة، فهي لم تقم فقط ضد نظم الحكم القديمة، وإنما ضد كل ما يحد من الحرية أو يقيد التعليم الدينية، وكانت هذه بمثابة دعوة إلى الفوضوية من وجهة نظر الكنيسة ثم زاد نابليون الطين بلة، بخلعه "البابا بيوس السادس" من منصبه ونفيه إلى فالنسيا حتى وفاته هناك عام 1799م، ثم وجه نابليون ضربته التالية حين تجاهل وجود "البابا بيوس السابع" أثناء احتفالات تتويجه في كنيسة نوتردام، حيث قام بوضع التاج لنفسه وللإمبراطورة أوجيني.

وكان النبلاء يكون طبقة لها امتيازاتها واحتفظ بالتقاليد الخاصة بهم، وكان النبيل وراثياً، يحصلون عليه بالمولد، ولذلك كانوا يحاولون الأبقاء على دمائهم نقية، وقد أخذ الملك في بيع المناصب للنبلاء الرداء بطريقة وراثية أو شخصية، وظل من بين سلطات السيد جزء من ممارسة القضاء والإشراف على الأمن في القري وبعض الإحتكارات مثل الصيد وبعض الضرائب والسخرة وخدمة الأرض، واحتفظ النبلاء بمزارع خاصة بهم، وكانت الإستقرائية تتنافس مع السلطة الملكية، ومع الطبقة البروجوازية في نفس الوقت، وكانت تشعر بضغائن عميقة تجاه السلطة الأولى التي كانت قد أخضعتها، وبشعور بالإنفصال والترفع عن الثانية التي كان نموها يهددها، وكانت تمثل أقلية صغيرة للغاية وقد عددها في فرنسا بنحو 110 ألف نبيل.

وقد أسفر الضغط الاجتماعي المتزايد عن سيل من الإتهام والقضايا، وأعمل العنف من جانب الفلاحين، فتفاقت بذلك التوترات الاجتماعية في الريف، وكان النبلاء يعفون من ضريبة "التاي" وهي الضريبة العقارية المفروضة على الأراضي والمسكن، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها، وضريبة الرؤوس وضريبة الدخل، وبذلك تعدي سخط

الفلاحين النبلاء إلى النظام نفسه، نظام العلاقة الإنتاجية الذي يسند مصالح هؤلاء النبلاء.

أما البرجوازية لم تكن جماعة ولا هيئة، ولكنها كانت تكون القطاع الأكثر ثروة والأكثر قدرة بما كان الفرنسيون يسمونه الطبقة الثالثة، وكان أولئك الذين يعتبرون أنفسهم على أنهم بورجوازيون بمعنى الكلمة كانوا عدداً بسيطاً من رجال المال وعلى درجة من الثروة، وكانوا يسايرون ويحاربون أعضاء المجموعتين الأخرتين، على أساس كونهم من الأغنياء، وكان الموظفون يمثلون نسبة كبيرة من هذه الطبقة، وكانوا قد حصلوا على عقود شراء أو التزام وظائفهم، وكان بعض هؤلاء الموظفين قد حصل على ألقاب النبيل، فإن البرجوازية كانت تحتك بطبقة نبلاء الرداء والإدارة، أما المجموعة الثانية من البرجوازية فكانت سلطتها أقل، رغم أن ثروتها كانت أكثر، وكانت تضم رجال المال المشرفين على الشؤون الاقتصادية والموردين، ومر الكثير من بينهم إلى صفوف النبلاء، وهذه البرجوازية العليا كانت تضم بعض رجال الصناعة أو أعضاء الغرف التجارية، أما ما نسميه بالطبقة الوسطى أو صغار البرجوازية؛ فكان الأعيان يسمونه بالشعب، وبكل احتقار إذ أنها كانت تعمل بأيديها؛ مثل وكيل البريد والمقاول وبائع الكتب وصاحب بنك الرهونات وبعض الجراحين، إذا أن غالبيتهم من الفقراء.

أما الفلاحون فقد استمر نظام عبودية الأرض في المناطق الغربية من القارة، وكان يشتمل على إبقاء حقوق السادة، وفي فرنسا حرر لويس السادس عشر عبيد الأرض، فأصبح ثلث الأراضي تقريباً في أيدي الفلاحين، وأصبح صاحب الحيازة الحرة، يمارسها ويورثها ويتصرف فيها كما يرغب، ولكن بالنسبة للبورجوازيين وسكان المدن وكذلك النبلاء، ظل الفلاح في كل مكان هو الكائن الجاهل الخشن الذي كان مصيره وطبقاً للتقاليد هو خدمة الطبقات الحاكمة وتمويل الخزانات الملكية وإطعام سكان المدن، وكان كل سكان القرية يتحملون سلطة السيد والتزاماته الشخصية، وكانت الحيازة تؤدي إيرادات حقيقية، مثل الضريبة الخاصة بالملكية والإيجار ونسبة من المحصول، وضريبة خاصة بالنقل من أرض إلى أرض أخرى والخاصة بالبيع.

علاوة على ذلك كان رجال الدين يجمعون ضريبة العشور، والتي كانوا يعطونها في بعض الحالات لأحد المدنيين بطريق الإلتزام، وكانت هذه أكثر ثقلاً من حقوق السادة وأصناف الملك إلى ذلك الضرائب الخاصة به وبالدولة، وكان الريف يدفع تقريباً كل شيء، ولم يطلبوا من النبلاء إلا نسبة بسيطة من ضريبة الرؤوس وضريبة الواحد من العشرين، وكانوا يعفون البورجوازيين، واقتصر رجال الدين على تقديمهم الهبات بدون إلزام، ومع ذلك لم يكن هناك شيئاً يثير الفلاح أكثر من ضريبة الملح والمعونات التي كان يجبر على تقديمها وبإجباره على تموين الأسواق، فشرع أنه يعاملونه معاملة الدواب.

أما بالنسبة للأوضاع السياسية؛ فقد كانت الملكية منذ عهد لويس عشر قد أصبحت مطلقة ومركزية وبيروقراطية، والحقيقة أن رد الفعل الإرسنقراطي كان يميز القرن الثامن عشر، مثله في ذلك مثل نمو البرجوازية، ولم تفكر في استخدام السلاح، ولكنها استخدمت وسائل برجوازية؛ مثل منافسة البلاط الملكي والاتجاه إلى الرأي العام، لعرقلة سلطة الملك والحد منها، وكان نبلاء السيف، الذين كانوا غالباً من أصل عادي رغم ادعاءاتهم، لم يبقوا في الصفوف الخفية، والتف حولهم الموظفون، أما السادة المتحالفين من الإساقفة، فإنهم سيطروا على المجالس الإقليمية، وتدرجياً تخلي خلفاء لويس الرابع عشر لهم عن الوظائف العليا في السلطة.

وأصبحت السلطة الملكية مهددة، بعد أن أصبحت ضعيفة، بأن تري رد فعل النبلاء يزداد جرأة ضدها، وكان من الممكن أن تؤيد البرجوازية طبقة النبلاء، وانتهى الأمر بنبلاء السيف، ونبلاء الرداء، والموظفين الذين كانوا يحافظون على تقاليدهم المهنية، ورجال القانون والفلاسفة الذين كانوا يستشهدون بالحق الطبيعي، ويصمون على التفكير العقلي، انتهى الأمر بهم جميعاً إلى أن يحدوا بالقانون من سلطات الأمير، وأن يضمّنوا حرية الفرد ضد التحكم، وكان كبار الملاك العقاريين والبورجوازيون والرأسماليون ينظرون بعطف إلى الحرية الاقتصادية.

وكان برلمان باريس قد وضع الضمانات الكافية لينعقد مجلس طبقات الأمة على النحو الذي يتفق مع مصلحة الطبقة الإقطاعية، فأضاف عن تسجيل المرسوم بدعوة مجلس طبقات الأمة هذه العبارة؛ طبقاً للنظام الذي اتبع في عام 1614م" ومعنى ذلك أن

يكون لكل طبقة من الطبقات الثلاث: النبلاء ، ورجال الدين والعامّة، عدد متساوٍ من الممثلين، وتصوت كل طبقة على حدة، ويكون لكل منها حق نقض قرارات الطبقتين الإقطاعية والملكية، وابتدائها بين الطبقة الإقطاعية والطبقة البرجوازية فقد بادرت الطبقة البرجوازية، إلى قبول التحدي في باريس، ومنها سرت حملتها إلى الأقاليم في شتاء (1788-1789)م.

وقد قامت حملة الطبقة البرجوازية على محورين؛ الأول: مهاجمة امتيازات الطبقتين الأوليين، والمطالبة بأن تحل الكفاءة محل النسب، والثاني: مهاجمة الأساس الذي ينعقد عليه مجلس طبقات الأمة والمطالبة بالتمثيل الضعفي (أي يكون عدد نوابها مساوياً لعدد نواب الطبقتين الآخرين معاً) وفرض التصويت المشترك (أي اجتماع الطبقات الثلاث معاً) والأخذ بالتصويت الفردي لا حسب الطبقة، وقد أزعجت هذه المطالب الطبقة الإقطاعية وخصوصاً أمراء البيت المالِك، الذين قدموا مذكرة إلى الملك يوم 12 ديسمبر سنة 1788م؛ أوضحوا فيها أن "الدولة في خطر" وأن هناك ثورة تستعد للقيام ضد نظام الحكم.

أما الأوضاع الفكرية؛ فقد شهد القرن الثامن عشر طائفة من الكتاب الذين زعزعوا دعائم النظام القديم، ونقصد بها دعائم الحكم المطلق أي عدم المساواة في أمور المجتمع، وعدم المساواة والتسامح في الشؤون الدينية، ونظام الحماية في ميدان الاقتصاد أمثال "مونتسكيو" في كتابه "روح القوانين"، وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية، فولتير الذي شغل نفسه بالتيارات الاجتماعية، أيضاً "جان جاك روسو" كتابه الشهير "العقد الاجتماعي" أن الإنسان خلق حراً ومساوياً لغيره في الحقوق، ولضمان هذه الحرية والمساواة نظم الأفراد أنفسهم، ناهيك عن جماعة من الكتاب هم "الموسوعيون" ومعظمهم ذوو أرواح ثارة كارهة لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وبجانبها ظهرت جماعة "الاقتصاديين" أو "الفيزيوقراطيين" الذي كانوا يقومون بأبحاث جريئة في شؤون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها. بهذه الفلسفات التي أثرت على الحالة العقلية للشعب الفرنسي مع استمرار استبداد الحكومة الفرنسية، سواء بالنسبة للامتيازات التي

كانت للإشراف والنبلاء ورجال الدين، أو أكثر الضرائب التي كانت تفرض على كل كاهل العامة الفقيرة، أدى إلى ضرورة قيام الثورة الفرنسية.

☒ الثورة وسقوط الباستيل

مما سبق يتضح أن الأزمة الاقتصادية التي اشتدت في صيف 1788م، كانت من أسباب الثورة، وبالنظر إلى خطورة الوضع المالي والاقتصادي حاول رؤساء الحكومة الفرنسية "ترجو ونكر وكالون وبريين" إصلاح الأوضاع ولكن دون جدوي، وكان أن اقترح كالون طرح المشكلة على الأمة الفرنسية من خلال مجلس طبقات الأمة الذي يمثل جميع فئات الشعب، وكإجراء تنفيذي تمت الموافقة على تحويل مجلس الطبقات إلى جمعية وطنية في 17 يونيو 1789م، لكي تضع دستوراً جديداً لفرنسا يصون حقوق المواطنين ويضمن حرياتهم، وذلك بالرغم من معارضة الملك، وبذلك تحول المجلس من هدفه الرئيسي الذي دعي من أجله وهو معالجة الأزمة الاقتصادية والمالية، وصار جمعية تشريعية تهدف إلى وضع دستور جديد للبلاد.

☒ مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية

في 8 أغسطس 1788م؛ في جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال، دعا الملك مجلس طبقات الأمة للإنعقاد في العام التالي، وارجع نكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذي يهيمن فيه على مالية فرنسا، ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذي أهملت دعوته للاجتماع طويلاً، والذي كان يجتمع فيه رجال الدين والإشراف وممثلوا الطبقة الثالثة "طبقة العامة" ويتداولون ويقترحون كل على حدة، ولم تضع الحكومة قبل إنعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستوري. وفي 5 مايو 1789م افتتح المحل في قصر فرساي بحضور مندوبي الأشراف والكنيسة والعامة، وأعلن الملك أن الهدف من اجتماع المجلس هو معالجة الأزمة المالية فقط، ولم يشر إلى مسألة الدستور الذي كانت تطالب به الطبقات الثلاث ليجد من سلطات الملك ويوظد دعائم التمثيل القومي، فتوترت العلاقة بين الحكومة وأنصارها من ناحية وبين ممثلي الشعب من ناحية أخرى، كما حدث خلاف حول كيفية أخذ الأصوات، وهل تعتبر كل طبقة صوتاً واحداً، أم تؤخذ الأصوات

بالأغلبية، حتى تضع قيمة الأغلبية العديدة التي أعطيت للعامّة، وتمسك كل فريق برأيه، وهنا ظهرت الجمعية الوطنية.

✘ الجمعية الوطنية

لما احتدمت الأمة حول طريقة أخذ الأصوات، اقترح "سييس" أخذ نواب العامّة في 16 يونيو 1789م أن بوصفهم نواب الشعب في وضع دستور للبلاد، سواء اشترك معهم بقية المندوبين أم لا، فاتخذ الأشراف من تصرف نواب العامّة ذريعة يقنعوا به الملك للانضمام إلى صفهم، فأمر بإغلاق قاعة الاجتماعات بحجة أعدادها لجلسة قادمة، كان عدد رجال الدين 308 والنبلاء 8 والنواب 622⁽³⁰⁾، وكانت الحكمة تشير باجتماع القوات بعيداً عن باريس، وكانوا يفضلون فرساي، الملك من أجل الصيد، والملكة وحاشيتها من أجل التسلية، وارتكب البلاط أخطاء أخرى باصراره على الإتيكت الذي كان يهيمن الطبقة الثالثة، ففرضوا كسوة خاصة لممثلي كل طبقة، وقدموا في 2 مايو إلى الملك، كل طبقة وحدها ومروا في جماعات منفصلة بمناسبة موكب "روح القديس"، وكان ممثوا الطبقة الثالثة يرتدون كساوي سوداء، وفق لهم الشعب معبراً عن ثقته بهم، أما النبلاء فكانت ملابسهم الزاهية بعد الموسيقى الملكية.

وفي أثناء الجلسات التي رأسها الملك، ادعي ممثلوا الطبقة الثالثة أن من حقهم الاحتفاظ بغطاء رؤوسهم مثل ذوي الميزات، وأشار "بايي" إلى أن الوفود التي كان يقودها إلى الملك لم يركع أمامه، وجاءت الجلسة التي أغلق فيها الملك قاعة الاجتماعات في وجه ممثلي الطبقة الثالثة دون أن يهتموا بإبلاغهم بذلك، فالتجأوا إلى ملعب التنس المجاور للقصر وأقسموا أن يظلوا متحدين حتى يتم وضع دستور، وكان هذا يمثل ثورة نواب الطبقة الثالثة على رغبة الملك، وحين استند الملك إلى قواته العسكرية، أكد النواب حصانتهم النيابية وأعلن "ميرابو" كلمته المشهورة: "لن نترك أماكننا إلا بقوة الحراب".

كان ميرابو من أنشط العاملين على إنكفاء ثورة الشعب، وبث روح الخروج والثورة في نواب الطبقات وزعماء الجماهير، بل كان أول من رفع لواء العصيان، وأشد من حرص على تأليف الجمعية الوطنية التي كان قيامها فاتحة النضال الحقيقي بين الشعب والملكية، ومن الصعب أن نستشف من الموقف الذي وقفه ميرابو عندئذ حقيقة الدور الذي أثاره من

وحي الجمعيات السرية في ثنانيا المعركة التي أخذ يضطرم لظاها بين دعاة الثورة والهدم وبين النظم القديمة، ومنذ ذلك اليوم انضمت أغلبية رجال الدين و47 من النبلاء إلى ممثلي الطبقة الثالثة، وبدأت بذلك الثورة البرجوازية، واختاروا لجنة الوضع الدستور، وتحول المجلس الوطني إلى مجلس تأسيس وتقديم "لافايت" بمشروع لإعلان حقوق الإنسان، مقتبساً من آراء روسو وآراء المفكرين الأمريكيين، وأهم ماجاء فيه: أن الناس سواء في الحقوق والواجبات، وأن القانون هو المعبر عن إرادة الشعب، وأن لكل فرد حق حرية الفكر وحرية الدين ما دام تمتعه بذلك لا يتعارض والصالح العام.

وهنا اتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة، ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا، وخضع الملك بشكل فجائي، وقبل المبدأ القاتل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتنافس كلها وتعطي صوتها بصفاتها جمعية وطنية واحدة، وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحرير ظاهراً من الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي، ويمكن الاعتماد عليها في العمل ضد الشعب، وهنا أدرك البرجوازيون أن الخطر يهددهم؛ فعقدوا اجتماعهم في اليوم نفسه في ملعب التنس، وشرعوا فور اجتماعهم يحلفون يمينا وضع صيغته "مونييه" بأنهم سوف يستمرون في الاجتماع في أي مكان تختاره الظروف، ووقعوا على تعهد أو ميثاق عرف باسم "ميثاق ملعب التنس" وكان من بين الموقعين تسعة من القساوسة، وفي اليوم التالي اجتمعوا في كنيسة "سانت لوي" حيث انضم إليهم 144 من القساوسة و4 من كبار رجال الدين واثنان من النبلاء.

استهوت لويس سياسة القوة والبطش بعد قدوم الجند الأجانب بقيادة "بروجلي" فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذه، هو الرد التاريخي الذي مازالت تختلف به فرنسا عيداً قومياً في 14 يوليو من كل عام؛ حيث تم الهجوم على حصن الباستيل في ذلك اليوم من عام 1789م، وسقوطه كخاتمه للطغيان المستتر والسجن الظالم المستبد، وكبشير لبزوغ فجر الحرية.

ما كاد سكان الأقاليم يسمعون بسقوط الباستيل حتى هاجموا قصور الأشراف التي كانت تمثل الباستيل في الأقاليم، ودمروا ما بها من سجلات تثبت حقوق الأشراف إزاء العامة حتى عمت الفوضى كل مكان، أيضاً سادت الفوضى الإدارة والجيش - وما هو

أدهي وأخطر على مستقبل فرنسا في البحار- سادت الأسطول الذي كان قد أبلى بلاءً حسناً أثناء حرب الإستقلال الأمريكية، وفي الرابع من أغسطس 1797م وقف أحد الأشراف في الجمعية الوطنية، واقترح النزول عن امتيازات الأملاك، فنزل الأشراف عن امتيازاتهم، ونزلت الكنيسة عن زكاتها، ولكن الملك فرغ من تمادى الشعب في ضغيانه، فدعا فرقة "الفلاندرز" الموالية له لتكون بمثابة حرس يدافع عن فرنسا، ورفض التصديق على قانون إجازته الجمعية الوطنية، وأشبع أنه يفكر في الفرار، وأن الحرس الملكي داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان، التي اختيرت كعلم جديد للأمة.

وفي تلك الأثناء اشتدت المجاعة بباريس، فحضر المهيجون النساء على الإجتماع والمطالبة بالخبز، ويرجع الملك إلى باريس اعتقاداً منهم بأن ذلك سوف يكثر القوات بالمدينة، فسار عدد كبير من النساء إلى فرساي، وخلفهن المئات من الرجال المسلحين واقتحم قاعات المجلس مطالبات بالخبز، ثم هاجموا القصر، ولكن الحرس حال دون وصولهم إلى هدفهم، ولكن في غفلة تمكنت الجموع من دخول القصر، وكان "لافايت" قد وصل إلى فرساي على رأس الحرس الأهلي، وطلب من الملك باسم البلدية العودة إلى باريس، وحال دون الجموع والملك، وقبل الملك العودة إلى باريس، وكان دخول الملك قصر "التويلري"، أول خطوة في سبيل قدره الأخير.

كان المجلس قد طلب من "لويس السادس عشر" أن يقبل مرسومات شهر أغسطس حينما حضرت النساء، وطالب أحد الزعماء بضرورة تموين باريس، وبضرورة إبعاد فرقة الفلاندرز عنها، وقد اعتقد الملك أنهم سيطلبون منه الموافقة عمل المرسومات، واعتقد أنه بموافقته عليها سينهي الأزمة، ولكن لافيات وصل مع مندوبي الكوميون، وطلب هؤلاء المندوبون من الملك الحضور من فرنسا للإقامة في العاصمة، وكانت موافقة الملك على المرسومات تمثل ميزة بالنسبة للمجلس الوطني، وفي يوم 6 أكتوبر دخل المتظاهرين إلى ساحة القصر، وحاول رجال الحرس الشخصي أن يمنعهم، فانتهى الأمر إلى وقوع اتشباك وقتل أحد العمال، ثم بعض أعداء من الحرس، وقد وصلت الجماهير إلى جناح الملكة، التي هربت إلى جناح الملك. ثم جاء الحرس الوطني ليخلي القصر، وظهر لافيت بدوره، وخرج إلى الشرفة مع أفراد الأسرة الملكية، وهتفت الجماهير

معلنة ضرورة العودة إلى باريس العاصمة، وقد تم ذلك بالفعل، وتم التحرك صوب باريس تحت حماية رجال الحرس الوطني، وكان البعض يحملون الخبز على أسنة حراب بنادقهم، واشتملت المسيرة على عربات قمح مزدانة بأغصان الأشجار، وكان رجال السوق والنساء يركبون على المدافع، واشتملت المسيرة على الحرس الوطني الشخصي، وعلى فرقة الفلاندرز وفرقة السويسريين وعلى عربة الملك وأسرته، وكان لافيت يسير على ظهر جواده.

الفصل الثامن

الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م)

الأزمات الدولية الممهدة للحرب العالمية الأولى

أولاً: أزمة مراكش 1906 - 1911 م

في أعقاب الاتفاق الودي 1904م فاوض "دلكاسيه" وزير خارجية فرنسا بشأن تقسيم مراكش دولة أسبانيا التي أقتنعت بالاستيلاء على (إقليم الريف) الشريط الساحلي من مراكش الذي يواجه ساحلهم عند جبل طارق، فلم يبق أمامها من معارض سوى ألمانيا التي كانت تهتم بمراكش، وتعمل على منع فرنسا من بسط سيطرتها عليها، فقام الإمبراطور "وليم الثاني" بالنزول في ميناء طنجة في مارس 1905 وألقى خطبة، أكد لسلطان مراكش أن ألمانيا تعتبره سلطاناً مستقلاً آملاً تحافظ مراكش على سياسة الباب المفتوح. في عام 1905 اقترح الكونت "شليفن" رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية على حكومته إقحام حرب على فرنسا لاختبار متانة الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي بشأن هجوم دبلوماسي قوى. وبسبب هذه الأحداث اضطرت فرنسا تجنباً للحرب إلى إحالة الأمر على مؤتمر دولي.

ففي 16 يناير 1906 عقد مؤتمر في الجزيرة الخضراء، وحضره ممثلو اثنتي عشرة دولة وسرعان ما تحول هذا المؤتمر إلى صراع سياسي بين ألمانيا وفرنسا، حصلت فرنسا على تأييد صريح من روسيا وبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا، في حين كان تأييد النمسا لألمانيا في المؤتمر تأييداً فاتراً، في المؤتمر انتصرت فرنسا لأنها حصلت على نصيب الأسد في السيطرة واستبعدت ألمانيا وحلفاؤها كلية من الشرطة، في حين نالت ألمانيا نجاحاً في الرقابة المالية وفرض التجارة، فقد تأسس مصرف الدولة تحت إشراف الدول الأربع ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا، وأسندت قيادة قوة أمن الموانئ إلى ضباط فرنسيين وأسبانيين. في أبريل 1911 انتهزت فرنسا فرصة الوضع الداخلي في المغرب، فأرسلت حملة حربية إلى فاس لمساعدة سلطان المغرب، فأثار هذا العمل ألمانيا وأرسلت

فى أول يوليه 1911 الطراد الألماني بانتر إلى ميناء أغادير، وأمام المخاوف الفرنسية والبريطانية من الوصول إلى حرب مع ألمانيا، بدأت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا من أجل الوصول إلى تسوية لهذه المشكلة، وهكذا اتفقت الدول الاستعمارية فيما بينها على حساب مراكش.

استغلت كل من إيطاليا وبروسيا أزمة أغادير لتحقيق أطماعها فوجهت إيطاليا إنذاراً نهائياً إلى تركيا فى 26 سبتمبر، وأعلنت الحرب عليها بعد ثلاثة أيام، واحتلت شواطئ طرابلس وجزر الدوديكانيز - 12 جزيرة فى بحر إيجه ، أهمها رودس- . على أن الأزمة انتهت بعد مفاوضات استمرت إلى 4 نوفمبر 1911 باتفاقية أصبحت المغرب بمقتضاها فرنسية فيما عدا طنجة والمنطقة الأسبانية، ولم تحتفظ ألمانيا إلا "بالباب المفتوح" للتجارة وتم تعويضها فى الكنفو الفرنسي.

ثانياً: أزمة ضم البوسنة والهرسك 1908م

أن بقاء مقدونيا تحت الحكم العثماني أثبت أنه مركز مزمن للاضطراب والقمع والشدّة، وكان التهجم والامتعاظ عظيمين فى أوربا، حينما عرف أن النمسا بدون علم حليفها ألمانيا، ضمت البوسنة والهرسك فى أكتوبر 1908، وأن بلغاريا بتشجيع النمسا أعلنت نفسها مملكة مستقلة عن الباب العالى، وقد رأت النمسا أن الفرصة سانحة لها لضم هذين الإقليمين الذين تحملت عبء إدارتهما منذ مؤتمر برلين 1878 حيث وقعت البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمساوى المجرى. تم التصديق على بيان الإمبراطور النمساوى بموجب معاهدة عقدت فى استانبول - نصت على إلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا، وكان هذا فى 26 فبراير 1909، وكانت جمعية الاتحاد والترقى هى القابضة على زمام الحكم فى الدولة العثمانية بعد أن أسقطت السلطان عبدالحميد الثانى من على عرش الحكم العثماني، لذلك حدثت احتجاجات شعبية فى استانبول تندد بإلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا، وظهرت شائعات تقول بأن حكومة الاتحاد والترقى " باعت " البوسنة والهرسك للكفار

لذا فقد ألهب ذلك شعور السخط فى جميع أنحاء صربيا ، كما اعتبرت روسيا أن ذلك ضربة غادرة موجهة لها من جانب النمسا ، خاصة وأن ذلك جاء بعد هزيمتها أمام اليابان

عام 1905 ، جعلها ضعيفة لا تستطيع أن تواجه النمسا بأى عداء ، مما أدى إلى تراجعها وتخاذلها ولم تصعد المشكلة، خاصة وأن الإنجليز أصدقاء الروس عارضوا فى فتح المضائق لمرور السفن الروسية فيها ، ولكن تخاذل روسيا كان ضربة لصربيا حليفها، فأعلنت روسيا أنها لا تمانع فى ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا أمام الضغط الألماني، وقد تسبب ضم البوسنة والهرسك من جانب النمسا إلى ازدياد التوتر والاضطراب فى منطقة البلقان، كما أدى إلى الصراع السياسى بين كثير من الدول الأوروبية. وعندما انسحبت الدولة العثمانية من بلاد البوسنة والهرسك لدولة النمسا والمجر، وقعت لأول مرة أعداد كبيرة من المسلمين تحت حكم غيرهم، فهاجر الكثير منهم إلى الأناضول والبلاد الأخرى التى بقيت تحت الحكم العثماني، وكان الحكم النمساوى قاسياً على المسلمين بسبب الاضطهاد ومحاولات التنصير من طرف الكاثوليك، مما أدى إلى هجرة الكثير من المسلمين إلى تركيا.

ثالثاً: الحرب التركية الإيطالية 1911 - 1912 م

أخذت إيطاليا تفكر فى إنشاء إمبراطورية فى أفريقيا، فأعلنت حرباً على الدولة العثمانية بعد أن حصلت على اعتراف الدول الكبرى باحتلال ليبيا، وأنزلت قواتها على الشواطئ الليبية واستولت على جزر الدوديكانيز فى بحر إيجه. ففى 26 سبتمبر 1911 أرسلت إيطاليا إلى تركيا إنذاراً أن تصدر تركيا أوامرها إلى قواتها بعدم التعرض للقوات الإيطالية، وانتشرت الأخبار بأن الباخرة التركية "درنة" فى طريقها إلى طرابلس محملة بالأسلحة والذخائر، فقدمت إيطاليا إلى الباب العالى مذكرة أشارت فيها إلى الأخطار التى تهدد الرعايا الإيطاليين فى طرابلس، وحذرت تركيا من أن إرسال السفن والمهمات الحربية سيعتبر عملاً غير ودى، ثم قدمت إيطاليا إنذارها إلى تركيا فى اليوم التالى بأن ضرورة ملحة لإنهاء حالة الفوضى والإهمال فى طرابلس وبرقة، وأن إيطاليا تطلب إجابة قاطعة من تركيا خلال أربع وعشرين وفى حالة عدم الإجابة ستكون إيطاليا مضطرة لأن تتخذ الخطوات اللازمة لتنفيذ الاحتلال.

ردت تركيا على الإنذار الإيطالى وأظهر الرد للإيطاليين حسن نية تركيا حيال إيطاليا ومشروعاتها الاقتصادية فى طرابلس وبرقة، وأكد لهم أن الحالة فى طرابلس لا تهدد

بالخطر وأن تركيا على أتم استعداد لكي تمنح إيطاليا امتيازات اقتصادية كافية في هذه الولاية، على ألا يؤثر ذلك على السيادة العثمانية، وعلى ألا تقدم إيطاليا على احتلالها عسكرياً، في 29 سبتمبر أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا، وقد جاء التوقيت مناسباً حيث انشغال تركيا بمشاكلها الداخلية في البلقان. وبعد أن فشلت إيطاليا في إرغام تركيا على التنازل لها عن ليبيا قررت ضم ليبيا رسمياً في فبراير 1912، ومن ناحية أخرى أرغم نشوب حرب البلقان في أكتوبر 1912 تركيا على أن تعقد صلح "لوزان مع إيطاليا، وفي هذه المعاهدة تنازلت تركيا عن ليبيا لإيطاليا.

رابعاً: الحروب البلقانية (Balkan Wars 1912 – 1913)

تمت مقابلة بين ملك إنجلترا وقيصر روسيا في ريفال في ظروف الوفاق الودي 1907 لتصفية الخلاف بين الدولتين وفهم من هذا الوفاق أنه مساومة استعمارية بينهما على حساب الدولة العثمانية، فكان لابد من تحرك الضباط الأتراك لإيقاف هذه المؤامرة الخارجية، إلا أن الضباط أرسلوا إلى السلطان عبد الحميد يطالبونه بإعادة دستور 1876 الذي عطله في 1878، وفي 24 يوليو 1908 أعلن السلطان إعادة الدستور وإلغاء الرقابة والجاسوسية وإجراء انتخابات لمجلس المبعوثان، وقبل إعلان الدستور بابتهاج بالغ في كافة أنحاء الإمبراطورية، فأعلن أنور باشا أن الحكومة الاستبدادية قد انتهت وأصبح الجميع متساوون سواء بلغار أو يونانيون أو رومانيون أو يهود أو مسلمون نفخر بأننا عثمانيون، وفي مدينة سيريس تعانق رئيس جمعية الاتحاد والترقي في بلغاريا مع البطرك اليوناني، وفي "دارما" سَجَنَ الضباط الأتراك أحد الأتراك لأنه أهان مسيحياً - وفي إحدى الكنائس الأرمنية اجتمع عدد كبير من الأتراك والأرمن للصلاة على روح ضحايا المذابح الأرمنية.

وفي أبريل 1909 قامت اضطرابات في العاصمة العثمانية على يد حركة موحدة بين العناصر الرجعية من أنصار السلطان عبد الحميد "وجمعية الاتحاد الحر" واحتل فريق من الجنود بقيادة أحد الألبان باحتلال البرلمان وقتل ضابطين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كما قتل وزير العمل وجرح وزير البحرية، وفي نفس الوقت بدأت مذابح الأرمن في بعض المدن، ويعتقد البعض أنه لولا هذه المذابح لكان في إمكان عبد الحميد أن ينجز

الانقلاب الرجعي، فلما بلغت أنباء هذا الانقلاب سالونيك زحف محمود شوكت بقواته إلى العاصمة لحماية الدستور بالقوة واجتمع مجلس المبعوثان في سان استيفانو في شكل جمعية وطنية وأعلن موافقته على خلع السلطان عبدالحميد على أساس فتوى من شيخ الإسلام، وكان في مقدمة الوفد ارباعي الذي تقدم إلى القصر السلطاني ليبلغ عبدالحميد نبأ عزله المحامي اليهودي عمانويل كاراسوافتوس أحد قادة الحركة الماسونية في سالونيك، ثم تم تولية السلطان محمد الخامس الذي ظل ألعوبة في يد الاتحاد والترقي الذين سيطروا على الحكم في تركيا بزعامة أنور باشا حتى الحرب العالمية الأولى وهم الذين دخلوا الحرب في جانب ألمانيا. الجدير بالذكر أن الأحداث تلاحقت، فكانت ثورات البوسنة والهرسك وبلغاريا وكريت، فأثارت هذه الثورات مشكلة النزاع بين المسلمين والمسيحيين من جديد.

لقد أثار ضم النمسا للبوسنة والهرسك الشعور القومي في بلاد البلقان، وتبين البلقانيون مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية بعد حرب طرابلس، ورأوا أن ساعة الخلاص من الحكم العثماني قد حانت خاصة وأنهما كانوا يطمعون في معاونة روسيا لهم بعد أن توترت العلاقات بينهما وبين النمسا، وتضاربت مصالحهما في البلقان، وقد كانت روسيا ترغب في بسط نفوذها على شبه جزيرة البلقان، هذا إلى جانب الهيمنة على البوغاز المؤدية إلى البحر المتوسط، وهذا بعد تخلص روسيا من الاحتلال الهولندي لموسكو والسيطرة عليها لمدة عامين منذ 1910 في الوقت الذي تمكن فيه السويديون من حرمان روسيا من منفذها على بحر البلطيق عند رأس الخليج الفنلندي ولذلك ففي 14 مارس 1912 شجع الروس كل من صربيا وبلغاريا على توقيع معاهدة تضمن تعاونهما المشترك، في حالة اعتداء أية دولة أوربية كبرى على حدودهما، وكانت هذه المعاهدة موجهة ضد دولة النمسا والمجر، حتى لا تتكرر مأساة ضم البوسنة والهرسك، وكذلك موجهة ضد الدولة العثمانية حيث يفهم من نصوص المفاوضات أن كلتا الدولتين كانت تريد نصيبها من ميراث الدولة العثمانية المنحلة، وقد عقدت معاهدة مشابهة بين بلغاريا واليونان، وكانت موجهة ضد الدولة العثمانية، ورغم أن روسيا شجعت تشكيل هذا التحالف إلا أنها اكتشفت أنه يهدد طموحاتها في الدولة العثمانية الضعيفة

ولم تمر إلا فترة قصيرة حتى شرعت دول عصبة البلقان فى إعادة النظر فيما حصلت عليه، وبالتالي بدأت حرب البلقان الثانية (الحرب بين دول العصبة) فى 25 يونيه 1913، فقد أعلنت بلغاريا فجأة الحرب على الصرب واستولت على قلب مقدونيا، ولكن سرعان ما دخلت اليونان الحرب إلى جانب الصرب ضد بلغاريا، وكانت النتيجة هزيمة القوات البلغارية، وانتهزت رومانيا هذه الظروف وأعلنت الحرب ضد بلغاريا وتقدمت قواتها حتى هددت صوفيا العاصمة البلغارية، وفى نفس الوقت تمكنت تركيا من استعادة أدرنة، فاضطرت بلغاريا إلى عقد معاهدة بوخارست فى 10 أغسطس 1913 وفيها استعادت تركيا أدرنة، وبذلك أغلقت المنافذ البحرية فى وجه بلغاريا وانضمت كريت إلى اليونان وظهرت دولة مستقلة جديدة وهى ألبانيا لتمنع وصول الصرب إلى البحر الأدرياتي.

خامساً: حادث سراييفو Sarajevo 28 يوليو 1914

كانت العلاقة بين النمسا وصربيا تسير من سئ إلى أسوأ والولايات اليوغسلافية المنفرقة حانقة على الحكم النمساوى، فتوالت المؤامرات لقتل كبار الموظفين النمساويين، فى الوقت الذى كان فيه ولى عهد النمسا الأرشيدوق فرانز فردناند من أكثر المتشددين إزاء المشكلة الصربية ويرى أنه لا يمكن تسويتها إلا بالقوة، ورأى تمهيداً لذلك جلب البوسنة إليه فزار عاصمتها سراييفو لهذا الغرض فى 28 يونيو 1914، أطلق عليه أحد طلاب المدارس العالية وعضو جمعية اليد السوداء الصربية ويدعى غفريلو برنسيب النار فقتله هو وزوجته، فأقدمت الحكومة النمساوية ومؤيدتها الحكومة الألمانية على التذرع بهذا الجرم لتخطو خطوة واسعة فى أوروبا. وفى يوم 23 يوليو 1914 قدمت الحكومة النمساوية إنذاراً نهائياً شديد اللهجة إلى الصرب قصد به أن يقابل بالرفض إذ كان ينطوى على تفويض استقلال الصرب وقد تضمن الإنذار عدة مطالب، وكان أول خاطر جال فى الأذهان هو أن الحكومتين النمساوية والألمانية تريدان أن تتخذا من هذه الجريمة نكايه لسلب صربيا استقلالها، وربما أيضاً لإقحام حرب عامة على روسيا وفرنسا قبل أن تستكمل السكك الحديدية الروسية، وتصبح معدة للقيام بأعباء الحرب، هذا برغم قبول صربيا سبعاً من العشر التى حواها الإنذار النهائى النمساوى، وذلك أن الجيش الذى تعطش طويلاً إلى تأديب " أمة القتلة والسفاحين " لم يقصد أن تفلت من أنيابه هذه المرة.

☒ الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)م

في أكتوبر عام 1914 كتبت مجلة ماكلين الكندية بعض الحروب تُسمّى نفسها، هذه هي الحرب العظمى. وهناك اسم آخر نُشر في نيويورك أوائل شهور الحرب كان بعنوان الحرب العالمية. استُخدم اسم الحرب العالمية الأولى لأول مرة في سبتمبر من عام 1914 من قبل الفيلسوف الألماني إرنست هيكل حيث قال: أنه لا يوجد شك في أن خشية مسار وطابع الحرب الأوروبية سوف يكون الحرب العالمية الأولى بالمعنى الكامل للكلمة. أيضاً ذكر اسم الحرب العالمية الأولى في عام 1920 من قبل المؤرخ والصحفي الإنجليزي تشارلز رينجتون.

كان الحلفاء في عام 1914 يتفوقون على الدول المركزية في القوة العسكرية، فقد كان لديهم 30 مليون محارب، في مقابل 22 مليون للدول المركزية ، وكان للبحرية البريطانية السيطرة على البحار. وضعت ألمانيا خطة الحرب منذ سنوات، فهي بالتالي مستعدة لخوض غمار هذه الحرب، فعندما أعلنت الحرب على فرنسا، دخلت خطة الكونت فوت شليفين الحربية، وهي التي وضعها في عام 1905 وأقرت رسمياً في عام 1912 في دور التنفيذ، وتقوم على الهجوم على فرنسا أولاً عن طريق اختراق حياد بلجيكا ولكسمبورج واحتلال باريس، ثم التحول إلى روسيا للهجوم عليها، وهذا يعني ترك بروسيا الشرقية معرضة لضربة من جانب روسيا الرابضة في الشرق، ولكن هذا الأمل كان معقوداً على صمود النمسا والمجر أمام روسيا لمدة ستة أسابيع، تكون باريس فيها قد سقطت ويمكن بعدها إرسال الإمدادات إلى الجبهة الشرقية، على أن روسيا انتهزت فرصة انشغال القوات الألمانية في فرنسا، لإنقاذ جيشين كبيرين لتطويق القوات الألمانية في بروسيا الشرقية، الأمر الذي اضطر ألمانيا إلى سحب ثلثي قواتها من الجبهة الغربية لمواجهة هذا الخطر.

ولما كانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة ، فهي من ثم خطة عتيقة يمكن إحباطها لو أنها قوبلت باستعمال الخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالاً صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا متقدمين في فنههم العسكري تقدم الألمان ، فركنوا إلى

أساليب الحرب المكشوفة التي كانت متأخرة ، ولم يكن لديهم عتاد مناسب لا من الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة.

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولاً بحصون " لياج Liege " وهي حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثني عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها في كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد في الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئاً جداً ، وطبيعي أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروب أعدت لهذه الحصون الهزيلة معاول تتمثل في مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقتابل شديدة التفجر ، وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصائد لحماية المدافعين 0

وكانت لألمانيا والنمسا والمجر في أول العمليات، قوات عسكرية تستطيع من الناحية العددية أن تحافظ على التناسب مع قوات الخصوم، وكان مجموع الأهالي الألمان مزودين بوطنية إيجابية وبشعور عميق بالعظمة والوطنية، وبروح تضحية في صالح الدولة ويتقالب عسكرياً قوية، أضف إلى ذلك أن ألمانيا كانت مركز التحالف الثلاثي المذكور حتى وإن كانت كل من النمسا والمجر لا تمثلان مركز ثقل لألمانيا.

أما بريطانيا فقد جاهدت قدر الاستطاعة في سبيل حفظ السلام في بداية الحرب، فعلى حد قول "فشر" أنه لا يمكن أن توجه إليها تهمة السعي إلى إشهار الحرب ، فإنه كان أمراً لا مفر منه ، فعند إقحام فرنسا في الحرب نجد أن الشعب البريطاني نفسه كان لا يريد الحرب حتى أنه لولا غزو ألمانيا لبلجيكا لحل بصفوف الوزارة والبرلمان والأمة الانشقاق وتفرق الكلمة 0 قام الفرنسيون بهجمة فاشلة في جبال الأردن الجنوبية وتأرجحت الجيوش الألمانية حول المسيرة الفرنسية حتى أيقن الناس أن جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها وسقط آخر حصن في لياج في 16 أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل في 20 أغسطس ، وعند مونز أصيب الجيش البريطاني الصغير المكون من سبعين ألفاً والذي وصل إلى بلجيكا بضربة قاضية من قوات ساحقة 0

كانت ألمانيا هي التي احتفظت بالمبادأة في العمليات الحربية خلال فترة تزيد على ثمانية عشر شهراً ، وكانت حملة العمليات الحربية تميزت بالمجهود الكبير الذي بذله الجيش الألماني بمعاونة الجيش النمساوي المجري لهزيمة القوات العسكرية الروسية التي

لم تتمكن فرنسا وبريطانيا منذ دخول تركيا الحرب واستمر الهجوم لفترة خمسة أشهر دون أن تتمكن محاولات فتح الجبهات الجديدة التي قام بها حلفاء روسيا - الهجمات الفرنسية في آرتوا وفي شمبانيا والهجوم البريطاني الفرنسي على الدردنيل - ولم تدخل إيطاليا الحرب ، وكانت النتائج الحربية ضخمة، ما دام الجيش الروسي قد أجبر على أن يترك علاوة على ذلك الجزء من "غاليسيا" الذي كان قد احتلته في عام 1914، الأراضي البولندية واللوانية من الإمبراطورية، ويفقد بين القتلى والجرحى والأسرى ما يزيد على 1,700,000 رجل، أى نصف قوته المحاربة تقريباً، ويترك بين أيدي العدو جزءاً من مدفيته، ولمدة شهور ستبقى القوات الروسية غير قادرة على القيام بهجوم من جديد.

أما إيطاليا فقد احتفظت بحيادها فترة من الوقت نظراً لأن إعلانها الحرب ضد دول الوفاق في ذلك الوقت لم يكن هناك ما يبرره، خاصة وأنها أعلنت " أنها لا تستطيع أن تساعد حلفاءها في التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا) في حرب عدوانية من جانبهم، وأنها ملتزمة بتحالف دفاعي فقط ، وإن كنا نرى فيما بعد أنها دخلت الحرب إلى جانب دول الوفاق (فرنسا وروسيا وبريطانيا)، وفي نفس الوقت كانت إيطاليا ترغب في الحصول على نقاط استغناء على شواطئ البحر المتوسط وخاصة في ليبيا وشرقي المتوسط، وكانت تخشى أن تسيطر دولة أخرى على البحر المتوسط، وفي الواقع أن بريطانيا كانت تراقب أبواب المتوسط إذ كانت تسيطر على قناة السويس ومضيق جبل طارق، كما كان لها قوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط، وهذا يعني أن الشواطئ الإيطالية يمكن أن تكون في حالة الحرب تحت رحمة الأسطول الحربي البريطاني ، وقد برر هذا حياد إيطاليا في عام 1914 حينما نشبت الحرب الأولى

أما الدولة العثمانية فقد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، بعد تورطها في حرب الموانئ الروسية على البحر الأسود في 29 أكتوبر 1914، فأعلنت روسيا الحرب عليها، وانضمت كل من فرنسا وبريطانيا إلى جانب روسيا وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في 5 نوفمبر، مما جعل الدولة العثمانية بدورها تعلن الحرب على الدولتين في 11 من نفس الشهر، وبالتالي أعلنت بريطانيا زوال السيادة العثمانية وقيام الحماية البريطانية على مصر، وبذلك أصبح إشرافها تاماً على القناة، وبذلك صار الصراع علنياً وشمل القتال كل

قارات العالم خاصة بعد أن دخلت ميدان الصراع كل من اليابان والتي لم يكن التحالف البريطاني الياباني يلزمها بدخول الحرب ولكنها رأت في دخول الحرب فرصة سانحة لها لاحتلال مستعمرات ألمانيا في الصين ، والمحيط الهادى فتشقى بذلك غليلها من كثرة الإهانات التى ألحقت بها من الجانب الألمانى ثم دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فيما بعد - وكان تدخلها فى 6 أبريل 1917 أمراً حاسماً إذ جاء بمثابة تعويض عن قرب تخلى روسيا عن الحلفاء0

وقد تسبب دخول تركيا الحرب جانب ألمانيا ودول الوسط فى مساندة إنجلترا وفرنسا أعمال المقاومة ضدها فى البلقان، وكان الثمن الذى دفعته تركيا هو التخلي عن المنطقة، كما تسبب دخول تركيا الحرب ضد روسيا أن أنفذ الحلفاء أسطول بريطانى لاقتحام الدردنيل ، وجيشاً إلى شبه جزيرة غاليبولى خط الدفاع الاستراتيجى عن القسطنطينية وضم هذا الجيش نحو 3000 رجل مصرى حققوا نجاحاً عظيماً للقوات الإنجليزية ، وفى تقرير من وينجت إلى بلفور يبين أنه عندما زاد الطلب على أهل الريف خلف خطوط القتال فى غاليبولى وفرنسا وسيناء والعراق وفلسطين نظراً لقدرتهم على تحمل الأعباء اليدوية الشاقة ، أنه خلال الفترة من سبتمبر 1915 إلى آخر مارس 1916 تم جمع نحو 19537 عاملاً (زاد العدد ليصبح 72548 فى 31 مارس 1917 ثم زاد إلى 97578 فى 31 مارس 1918 وزاد مرة أخرى فى 30 يونيو ليلبلغ نحو 106850 عاملاً، وهناك تقرير آخر يوضح أن ما تم جمعه من عمال التراحيل كان نحو 14600 عاملاً شهرياً، فى حين أن أحمد شفيق فى حولياته قدرها نحو نيفاً ومليون فرد، كما أعلن السير موراي عن حاجته إلى 12000 فلاح مصرى شهرياً لفيلق العمال و 5000 فلاح شهرياً لفيلق النقل بالجمال وأوضح أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق التجنيد الإجبارى، أيضاً طلب اللواء هربرت أعداداً أخرى من الريف للعمل فى فرقة التشهيلات المساعدة

ناهيك عن استخدام القوات البريطانية كثير من المجالات المصرية مثل الأفراد والدواب ووسائل النقل وعلف الدواب رغم أنف المصريين للخدمة فى كثير من ميادين القتال وكان لهؤلاء دور كبير فى انتصار الحلفاء، ليس هذا فحسب، فقد قدمت مصر مدرسة البوليس لاستعمالها مستشفى حربية، هذا جانب المستشفيات المصرية ودور

جمعية الهلال الأحمر المصري في الحرب، لصالح الجرحى الإنجليز وحلفائهم، كما تم استخدام قناة السويس لصالح الحلفاء، أيضاً قامت السلطة العسكرية البريطانية بتقييد الحرية التجارية المصرية مع دول العالم، وأن القوات البحرية والحربية البريطانية يجوز لها أن تباشر جميع حقوق الحرب في الموانئ المصرية أو في الأرض المصرية، وكل ما يجرى الاستحواذ عليه في الموانئ المصرية أو في الأرض المصرية من سفن حربية أو تجارية أو بضائع يجوز إحالته على إحدى محاكم الغنائم البريطانية، وكان الغرض من اقتحام المضائق إنشاء ممر بين البحر المتوسط والبحر الأسود مع الاستيلاء على العاصمة التركية، لإنقاذ روسيا من عزلتها، وتمكين الدول الغربية من الاتصال بها حتى يمكن تطويق ألمانيا في كل مكان، وعزل تركيا عن حلفائها، فعندما دخلت تركيا الحرب واعتدى الأسطولان الإنجليزي والفرنسي على مضيق الدردنيل رغم تحصينه ومضيق البسفور، فقد كانت هناك آراء بأنه يمكن منع الأسطول من الاقتراب من المضائق، أو على الأقل منعه من الإنزال البري، مع التخوف من حدوث إنزال برى في حالة وجود أسطول قوى، وخاصة إذا تمكن العدو من اكتساب موقع على الساحل

ولكن هذه الحملة (حملة الحلفاء) لم تنجح، فقد انهزم الأسطول الإنجليزي هناك في 18 مارس 1915، وفشلت الحملة البرية في اقتحام غاليبولى واضطرت إلى الانسحاب النهائى وعجزت روسيا عن مد يد المساعدة لحلفائها كما كانوا يتوقعون، لذا عمد الحلفاء إلى مهاجمة تركيا في إمبراطوريتها في الشرق الأوسط فقد استولوا على الجزء الأكبر من العراق ودخلوا بغداد، واستولوا في فلسطين على يافا وبيت المقدس بمساعدة الآلاف من العمال المصريين الذين قامت بجمعهم السلطات البريطانية في مصر حيث قاموا بتعبيد الطرق إلى فلسطين، ثم استخدمتهم في العراق وفرنسا، كما تصدت القوات المصرية للأتراك وطردتهم من سيناء، بل كان للقوات المصرية دور كبير في فشل الحملة التركية على قناة السويس في فبراير 1915 من خلال فرقة العمال وفرقة الجمالة المصرية - ومساعدة القوات الإنجليزية في تمهيد الطرق وعبور سيناء إلى فلسطين.

وفي مصر قام فون كريستشاتين بشن هجومه الأخير على قناة السويس في صيف 1916 ولكنه تعرض للهزيمة، وأصبحت القوات البريطانية التي صارت تحت قيادة الجنرال

موراي في وضع يسمح لها بطرد الأتراك من سيناء، وبحلول ديسمبر 1916 وصلت إلى العرش ومنها إلى غزة0 ولكن بخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى في عام 1917 استبعدت من الاتفاقية، وأعلن القائمون على الثورة البلشفية في روسيا أن العهد الجديد قد نفى يده من كل المعاهدات العدوانية التي عقدها روسيا القيصرية مع غيرها من الدول الأجنبية، وأن هذا العهد يريد إقامة علاقات تعاون مع الشعوب واستنكار اغتصاب الدول الكبرى لأراضي الدول الصغرى وبالتالي تنازلت روسيا عن نصيبها في ممتلكات الدولة العثمانية بمقتضى معاهدة لندن السرية في عام 1915، وانفردت إنجلترا وفرنسا بالتقسيم.

وفي بداية عام 1917 ، توقف التقدم الألماني ضد الحلفاء، وكانت الحروب مشتتة على كل الجبهات ، وكان العثمانيون يحاربون في سبع جبهات وهم في حالة يرثى لها من قلة الزاد والعتاد، في الوقت الذي كان فيه حلفاء الدولة العثمانية لا يقدمون ما وعدوا به، ذهب وفد عثمانى للقاء السلطان السابق (عبدالحميد) وطلب منه النصيحة بما يجب عمله ، فكان رد السلطان : " إن القضايا التي تحدثتم فيها تعتبر أموراً طبيعية لطريق منفرد تم السير فيه ، لقد تعقبتم - من بعدى - سياسة مختلفة تماماً عن سياستي ، جعلتم مشكلة البوسنة والهرسك تخرج من إطارها الذي رسمته أنا لها وهو أنها مشكلة نمساوية - روسية ، فجعلتموها مشكلة عثمانية - روسية ، وأخرجتم مشكلة كريت من كونها مشكلة إنجليزية - روسية ، وجعلتموها مشكلة عثمانية - يونانية ، ووقعتم في خطر كبير عندما أزلتم بأنفسكم الخلاف بين الكنيستين اليونانية والبلغارية ، وبذلك أوجدتم الفرصة أمام تحالف البلقان ، وجعلتم الباب مفتوحاً لكي تقوم كل من الصرب والجبل الأسود وإيطاليا بإثارة الألبان الذين حافظوا على علاقاتهم بالدولة العثمانية ببعض الامتيازات الخاصة ، وجعلتم حق القرار في مجلس "المبعوثان" مسرحاً لنتائج خطيرة من شأنها تقديم الإمكانيات الحيوية لاتحاد غير المسلمين، وبكل هذه الأخطاء خرج محور التوازن السياسي الذي تستند إليه الدولة عن مجراه، ولو لم تحدث حرب البلقان لما حدثت الحرب العالمية الأولى" ، وقال : "إن المنتصر في هذه الحرب هو الجانب الذي يملك القدرة البحرية الحربية، والمصادر الطبيعية لدى الألمان محدودة، وحدودنا طويلة ولذلك نجد

مشقات كثيرة في الدفاع عنها، ذلك لأننا نستورد السلاح واحتياجاته، وإنا الآن مجبرون على أن نتلقى هذه النتائج التي ظهرت بالفعل ولا بد من التسليم باضطرارنا لهذا ، ثم ما معنى استشارتكم لي بعد أن تكدست النتائج التي أسفرت عنها الأحداث السابقة.

الجدير بالذكر أن الضباط العرب العاملين في الجيش العثماني انضموا إلى قوات الثورة العربية ، وذلك لأن جمال باشا قام بسبب إخفاقه في حملته على مصر بأن ألقى القبض على عدد كبير من الناس وقدمهم إلى محكمة عسكرية في عالية بجبل لبنان وحكم على 13 منهم بالإعدام في أغسطس 1915 ببيروت، وفي 5 أبريل 1916 قام جمال باشا بأعدام 21 شخصية منهم سبعة في دمشق و14 في بيروت من بينهم عبدالحميد الزهراوي عضو مجلس الأعيان الذي ترأس المؤتمر العربي في باريس، مما عجل بصيحة العرب للثورة العربية ضد العثمانيين، وقد وصلت الضباط العرب المنضمين للثورة بعض المعدات من الحلفاء بعد أن أدركوا أهمية الثورة لهم، حيث قيدت هجوم الجيوش العثمانية على قناة السويس، كما حالت دون نجاح الحملة العثمانية الألمانية إلى جنوب الجزيرة، وواصلت الجيوش العربية تقدمها حتى وصلت إلى العقبة في يولييه 1917 .

إلا أن الثورة العربية خابت في تحقيق أهدافها بإقامة الدولة العربية المستقلة، وذلك بسبب تأمر بريطانيا وفرنسا عليها بعملية التقسيم السرية سالفة الذكر وفي نفس الوقت حدثت نكبة الدولة العثمانية في حرب البلقان أمام الدول الأربع (اليونان وبلغاريا والجبل الأسود والصرب)، وعلى حد قول السلطان السابق عبدالحميد: " أن الذي هزمتنا ليس الدول الأربع، وإنما تدخل الجيش في السياسة"، وقال: "أن سقوط سالونيك يعني سقوط إستانبول ، وهذا يعني ضياع الدولة العثمانية".

ناهيك عن وصول نواب هدنة مودروس 30 أكتوبر 1918 ، حيث رفع قومندان باب المنذب هذا النبا الوارد من حاكم جزيرة ميون البريطاني في حينه إلى سعيد باشا قومندان لحج ليتخذ الإجراءات اللازمة تبعاً لما يراه، ونتج عن ذلك انسحاب الدولة العثمانية من اليمن نهائياً في نهاية الحرب العالمية الأولى، وبالتالي خرجت الإمبراطورية العثمانية من الحرب إثر هدنة مودروس ، ولم يكن في مقدور طلعت وأنور، اللذان عقدا هذه المعاهدة ،

أن يقوموا بمفاوضات الصلح، لأنهما كانا في أعين الأعداء المسؤولين الرئيسيين عن دخول تركيا الحرب، أما فريد باشا الذي قبض على أزمة الحكم في 4 مارس 1919 بيد أن ثقته بمبدأ ويلسون الذي نص على أن تتمتع الأجزاء التركية من الإمبراطورية العثمانية بالسيادة الكاملة ما لبثت أن منيت بخيبة أمل فاضحة، وفي 15 مايو 1919 احتل اليونان أزمير بالاتفاق مع الحلفاء

إلا أنه وعلى الرغم من تخوف ألمانيا من خزلان إيطاليا لها، ففي مايو 1915 دخلت إيطاليا الحرب ضد النمسا، بعد أن كانت قد أعلنت حيادها عند نشوب الحرب، فقد أغراها الحلفاء على الانضمام إليهم لتخفيف الضغط عن روسيا بالاشتباك مع النمسا، وعقدت معاهدة معها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا (معاهدة لندن) التي تقضى بإعطاء إيطاليا منطقة الترينينو والتيرول الجنوبي حتى ممر برنر وتريستا وشبه جزيرة استريا وشمال دلماشيا، وميناء فالونا في ألبانيا وجزر الدوديكانيز في بحر إيجه، كما سمح لها بتوسيع ممتلكاتها في أريتريا والصومال. ولكن إيطاليا واجهت بعد هجومها على النمسا حملة مشتركة من الدول المركزية بقيادة القائد الألماني "بيلوف" وهزمت إيطاليا في كاربوريتو في 24 أكتوبر 1917

وكان الدور الثاني من أدوار الحرب حملة مدبرة تدبيراً أقل إحكاماً ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القتال الإنجليزي إلى الساحل فيما يشبه السابق، ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم في المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة قوية بالإنجليز بالقرب من "إبير" ومنع المدد الآتي من إنجلترا إلى فرنسا ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وكادوا أن يحدثوا ثغرة في صفوفهم لولا أن صمد لهم الإنجليز وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلاً دام طيلة النصف الأول من عام 1916 حول فردان، ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدتهم القوات الفرنسية بعد أن تقدموا في الخطوط الفرنسية بضعة أميال، وتعادلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان، وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم " لن يَمروا " وبعد أن فشل الألمان في اختراق جبهة الحلفاء الغربية، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد، عاود الألمان التفاتهم إلى روسيا، وأصابوا الروس بسلسلة من الضربات

الفادحة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية، فهزمهم فى جنوب الجبهة الروسية أولاً ثم فى شماله.

✘ حرب الغواصات ودخول الولايات المتحدة الحرب 1917م

كانت اتجاهات الحكومة الأمريكية فى الأيام الأولى لنشوب الحرب تدعو إلى أن تظل الولايات المتحدة بعيدة عن هذه الحرب التى أشعلها محترفو السياسة من الأوربيين ، وظهرت الصحافة فى الولايات المتحدة - غداة نشوب الحرب الأوربية - تشيد بابتعاد الأمريكيين عن الحرب ، وتهزأ من هؤلاء الأوربيين الذين يخوضون حرب شاملة ليس لها مبررات قوية من وجهة نظر الصحافة الأمريكية.

ومن أسباب تدخل الولايات المتحدة الحرب الآتى :

كان الرئيس ويلسون قد استلم من الحكومة الألمانية مذكرة تعلن فرض الحصار على سواحل الجزر البريطانية وسواحل فرنسا ، وتعلن السفن المحايدة ستتحرك على مسئوليتها فى بحر المانش ، وبحر الشمال ، وبحر إيرلندا ، والحوض الغربى من البحر المتوسط ، أى أن حرب الغواصات التى كانت قد بدأت فى 1915 والتى أوقفت منذ مايو 1916 حتى لا تتعرض للمصالح الأمريكية ستعود من جديد ، وسيقومون بها " بدون أى تحديد " ورد الرئيس ويلسون بقطع العلاقات الدبلوماسية ولكنه كان يأمل فى أن يكون ذلك كافياً لإعادة ألمانيا إلى صوابها ، وأنه لن يقوم بالدفاع عن حرية البحار بقوة السلاح إلا فى حالة ما إذا تبعت التهديد الألمانى ، وكانت الأحوال الاقتصادية هى التى أدت إلى أول رد فعل للمصدرين الأمريكيين أمام المخاطر التى يعينها إعلان حرب الغواصات بغير حدود ، وهو وقف الحركة فى المنطقة التى أعلن فيها الحصار ، وهذا القرار شل عمليات التصدير الموجهة صوب فرنسا وصوب بريطانيا ، وتسبب فى " تخمة اقتصادية " فى الموانئ الأمريكية المظلة على المحيط الأطلنطى ، والتى ضاقت بالبضائع التى لم تعد السفن التجارية تنقلها ، وبدأ من الضرورى لعلاج هذه الحالة ولتشجيع أصحاب السفن على العودة إلى الحركة وإعطاء السفن التجارية الوسائل اللازمة لكى تدافع بها عن نفسها ضد هجوم الغواصات ، ولذلك فإن مسألة تسليح السفن التجارية الأمريكية طرحت أمام البحث إلى أن حصل الأسطول التجارى بقرار رئاسى على التصريح بحمل المدافع.

استخدمت الغواصات لإغراق سفن الأعداء في المياه الإنجليزية في 4 فبراير 1915 ، وفي أبريل أغرقت الغواصات الألمانية الباخرة لوزيتانيا على مقربة من ساحل أيرلندا ، وعليها ألف راكب منهم أكثر من مائة أمريكي، وعندما تحرك الرأي العام ضد ألمانيا أوقفت عمل غواصاتها ، ولكنها عادت إلى العمل من أول مارس 1916 وفي 24 مارس أغرقت الباخرة ساسكس، ثم لجأ الألمان إلى حرب الغواصات بهدف إغراق أية سفينة تجارية دون سابق إنذار وذلك لتجويد بريطانيا، ففي الأشهر الأخيرة من عام 1916 أغرقت الغواصات الألمانية ما حمولته 30 ألف طن كل شهر، وفي بداية عام 1917 كان لدى الألمان نحو 120 غواصة ارتفع عددها إلى 134 في أكتوبر 1917، وكان تصعيد حرب الغواصات التي كانت تشنها البحرية الألمانية تعنى زيادة الخسائر الاقتصادية بالنسبة للأمريكيين وتصعيد عدد المتعطلين خاصة في موانئ أمريكا الشمالية حتى لقد طغت موجة السخط الأمريكي ضد الألمان على الأعمال البريطانية العسكرية التي أضرت بالمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة ، فالواقع أن كل من الحلفاء ودول الوسط أضرت بطريقة أو بأخرى باقتصاديات أمريكا، وهناك العديد من الحوادث التي وقعت ضد الاقتصاد الأمريكي على يد الإنجليز فقد وسعت بريطانيا من مفهوم " الممنوعات " التي يجب أن تصادرها حتى لا تصل إلى ألمانيا ، فأدخلت في قائمة " الممنوعات " المواد التي تشتريها الدول المحايدة من الولايات المتحدة بقصد إرسالها إلى ألمانيا، وبهذا فإن العامل الاقتصادي أعتبر من أهم العوامل التي دفعت الولايات المتحدة إلى دخول الحرب إلى جانب دول الوفاق، خاصة بعد أن سمحت الولايات المتحدة للمصارف الأمريكية بتقديم قروض لدول الوفاق ، كما أن قضية "زيمرمان" تعتبر الحدث الثاني الذي عجل بدخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا

أن قضية زيمرمان مساعد أمين سر الدولة الألمانية في وزارة الشؤون الخارجية ، فقد أرسل زيمرمان إلى سفير ألمانيا في مكسيكو برقية يقترح فيها على المكسيك أن تكون حليفة لألمانيا في حالة نشوب الحرب بين ألمانيا والولايات المتحدة، وبعد استرجاع الأراضي التي أخذتها الولايات المتحدة من المكسيك عام 1848 " تكساس وأريزونا والمكسيك الجديدة " وأضاف زيمرمان بأنه يمكن من خلال المكسيك الدخول في مفاوضات

مع اليابان لتتخلى عن دول الوفاق وتتحالف مع ألمانيا، إلا أن برقية زيمرمان وقعت في يد المخابرات البريطانية وسلمت إلى رئيس الولايات المتحدة الذي أذاعها، وقد كان أثر هذا الحادث كبيراً في الولايات المتحدة، فقد ظهرت موجة استياء كبيرة ضد ألمانيا، عموماً أن هذه الأحداث قد أدت إلى تطور الرأي العام الأمريكي لصالح دول الوفاق ، إلا أن تصميم ألمانيا على مواصلة حرب الغواصات هو الذي دفع الولايات المتحدة إلى دخولها الحرب.

أما عن أبعاد التدخل الأمريكي في الحرب فإنه غير كل حسابات الألمان ، إذ أن حملة السفن التجارية الموجودة من أجل تموين الجزر البريطانية قد زادت بنسب هامة ، ففي فترة رئاسة ويلسون الثانية كان لروزفلت الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة فيما بعد دوراً هاماً حيث ظل ينادى بوجوب الاستعداد الكامل في حالة اضطرار الولايات المتحدة للاشتراك في الصراع ، وعندما حدث ذلك بالفعل في عام 1917 رمى بكل ثقله في المعركة لكسب الحرب ، كما عمل على تأييد مشروع بث الألغام في بحر الشمال حيث نجح هذا المشروع رغم أنه تم متأخراً، وأصبح الأسطول التجارى الأمريكى كله تحت تصرف منظمات النقل المشتركة للحلفاء، كما دخلت كل دول أمريكا اللاتينية الحرب بدخول الولايات المتحدة، وأخذت في مصادرة السفن التجارية الألمانية التي كانت قد التجأت إلى موانئها منذ 1914 ووضعتها في خدمة دول الوفاق أو في خدمة الولايات المتحدة، وأخيراً فإن الدول الأوروبية المحايدة قد أُنذرت بأنها ستحرم من السلع الأمريكية، ما دامت سفنها ترفض الإبحار، ولا شك في أنه كانت هناك أسباباً أخرى لفشل حرب الغواصات ، تقنية وتكتيكية.

وكان لدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء أهمية كبيرة ، عوضتهم فيما بعد انسحاب روسيا من الميدان، وأخذت الخسارة تقل رويداً رويداً عندما نجح الحلفاء في تحطيم عدد كبير من الغواصات الألمانية وهو السلاح الذي كانت ألمانيا تستخدمه بنجاح، كما أحكم الحلفاء الحصار البحري على ألمانيا بفضل عون الأسطول الأمريكى، كما خففت القروض الأمريكية من متاعب الحلفاء وقلقهم المالى، كذلك سلب ظهور جيش أمريكى

جرار حسن العدة والتجهيز في الميدان الغربي في آخر عام من أعوام الحرب - سلب الدولتين الوسطين آخر فرصة لإبرام صلح ملائم لهما.

✘ الثورة الروسية 1917

كانت الظروف الداخلية في روسيا من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الروسية ، فقد كان هناك تدمر عام في البلاد ، حيث عم السخط المنظمات الطلابية في الجامعات الروسية ، كذلك الطبقة الوسطى كانت تأمل في إحداث تغييرات دستورية بعيدة المدى ، أضف إلى ذلك مطالبة الفلاحين بضرورة وضع قوانين عادلة ، وبالرغم من هذه الظروف إلا أنه عند قيام الحرب تجاهلت الأحزاب السياسية تلك الظروف والخلافات ، وظهرت على الساحة روح جديدة من الولاء الوطني للقيصر ، ولكن هذا الولاء لم يستمر طويلاً ، ففي 1915 زحف الألمان تجاه روسيا عبر بولندا ، وتلقت القوات الروسية العديد من الهزائم التي أثرت في الروح المعنوية لهذه القوات والأحزاب والروس جميعاً حتى بلغ الأمر أن انتصار روسيا في الحرب أصبح خيال بعيد المنال طالما أن الطبقة الأرستقراطية لا تزال تسيطر على إدارة البلاد الروسية . في 15 مارس 1917 أرغم قيصر روسيا على النزول عن عرشه، ثم بدأت سلسلة من الأحداث بشغب عام في " بترغراد " في 8 مارس، وانقطاع الصحف عن الظهور، ثم اعتصام عمال الترام في 10 مارس، وفي 11 مارس أعلنت أورطة عسكرية عصيانها، ثم حدث في اليوم التالي تمرد الحرس القيصرى، وكانت هذه الثورة ثورة قام بها الروس ضد الجوع والشقاء الذى انتابهم، كما استعادوا إلى أذهان الناس الخسائر الهائلة التى حاقت بجيوشهم، والأربعة الملايين من القتلى والجرحى، واختلاس أموال الدولة، وسوء توزيع موارد البلاد ومنتجاتها، والشكوك القوية التى خامرت النفوس بأن القيصر تعاون مع الألمان خفية تحت تأثير "راسبوتين" الخليع الفاجر، وأخيراً حينما تذكروا طرق القمع ارجعية التى استخدمها "بروبوبوف" وزير الداخلية، وآخر مشيرى القيصر وأقلهم فطنة وحصافة. وكان أعضاء مجلس الدوما قد رفضوا قبيل تنازل القيصر إطاعة أوامره بالانفضاض وانتخبوا في 14 مارس حكومة وقتية برئاسة الأمير " لفوف" تضم أغلبية الحزب الديمقراطى الدستورى، وقد حاولت هذه الحكومة أن تحكم البلاد ، وتدير دفة الحرب بعد سقوط القيصر .

✘ نهاية الحرب

في 11 نوفمبر 1918 أعلنت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها بعد أربع سنوات وربعاً، قتل فيها أكثر من ثمانية ملايين فرداً، كما مات أكثر من عشرون أو خمسة وعشرون مليوناً آخرين بسبب المصاعب والفوضى، وقاسى عشرات الملايين مما ألم بهم من ضعف بسبب سوء التغذية والشقاء، كان طلب الصلح على أساس شروط الرئيس الأمريكي ويلسون التي كان أعلنها كدستور للتسوية وعرفت باسمه مبادئ ويلسون الأربعة عشر، وكان أهمها هو مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

الفصل التاسع

مؤتمرات الصلح واتفاقيات السلام

1- مؤتمر الصلح واتفاقية السلام

افتتح المؤتمر في يناير 1919 في باريس برئاسة "كليمنصو" رئيس وزراء فرنسا للاتفاق على شروط الصلح، وقد حضر المؤتمر مندوبو الدول التي حاربت في صفوف الحلفاء، كما حضره مندوبون من الأمم والشعوب التي وعدت بالحرية والاستقلال مثل: البولنديين والعرب واليهود. وقد بدأ المؤتمر جلساته في 18 يناير 1919، ووقعت معاهدة فرساي مع ألمانيا في 28 يونيو، وكانت آخر جلسة للمؤتمر في 21 يناير 1920، وكان أشهر أعضاء المؤتمر مندوبو الدول الكبرى، حيث كان لكل منهم وجهة نظر، وأشهر الشخصيات هذه : جورج كليمنصو الفرنسي، لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وويلسون الرئيس الأمريكي، وأورلندو رئيس وزراء إيطاليا.

وفعلاً وقعت معاهدة الصلح في صالة "المرايا" في قصر "فرساي" في 28 يونيو 1919، واكتظت حدائق القصر بجمهور الناس ليلقوا نظرة على أقطاب السياسة الذين استعذبوا إذلال ألمانيا ، حتى لا تقوم لها في المستقبل قائمة أما عن شروط التسوية فكانت كالتالي؛ بموجب معاهدة فرساي استعادت فرنسا الإلزام واللورين، وبالتالي حصلت على ثلاث أرباع إنتاج ألمانيا من الحديد، كما حصلت على استغلال الفحم في إقليم السار لمدة خمسة عشر عاماً على أن يوضع هذا الإقليم تحت إدارة عصبة الأمم أثناء هذه الفترة، وأن يتحدد مصير تبعته باستفتاء عام يجرى في عام 1935، وقد جاء الاستفتاء الذي أجرى في تلك السنة لصالح ألمانيا، لأن واحداً في المائة من سكان إقليم السار من غير الألمان، كما تم الاتفاق على تجريد منطقة الراين إلى عمق خمسين كم من السلاح 0 أن رغبة إنجلترا والولايات المتحدة كانتا تعارضان المخططات الفرنسية التي تهدف إلى الانتقام من ألمانيا، بفصل أقاليم الضفة اليسرى لنهر الراين عن ألمانيا ويجعلها تكون تحت إشراف عصبة الأمم ، ولكن تخضع لاحتلال عسكري مشترك من جانب الحلفاء، وهذا

الحل وإن كان يضمن أمن فرنسا ، إلا أنه يتعارض مع مبادئ ويلسون، لذا رفضته كل من بريطانيا والولايات المتحدة، لأنه سيدفع ألمانيا إلى أن تفقد الأمل وتلقى بنفسها في أحضان روسيا، ولكن لويد جورج اقترح إبدال هذا الضمان الإقليمي بضمان عسكري ودبلوماسي، فألمانيا التي سينقص عدد قوات جيشها إلى 100,000 جندي، ستحرم من الطيران ومن الدبابات ومن المدفعية الثقيلة ، وستحرم من حق وضع قوات أو إنشاء تحصينات في أقاليم الضفة اليسرى لنهر الراين

2- معاهدة سان جرمان مع النمسا

عُقدت مع النمسا في 10 سبتمبر 1919م، وبها انكشنت إمبراطورية النمسا، وتحولت إلى جمهورية صغيرة، وكذلك استقلال المجر فأصبحت جمهورية مستقلة، تكونت يوغسلافيا من صقالبية الجنوب (البوسنة والهرسك وساحل دلماشيا) والصرب. في الوقت الذي تكونت فيه تشيكوسلوفاكيا من صقالبية الشمال (بوهيميا، مورافيا، سيليزيا).. الخ.

3- معاهدة نوبلي (نوبي)

تفقدت بلغاريا بموجبها سواحلها على بحر ايجه الذي ضمّ لليونان كما عدلت حدودها الغربية لصالح يوغسلافيا.

4- معاهدة تريانون مع المجر

وقعت المعاهدة في " قصر تريانون " الكبير القريب من حدائق فرساي. ولقد وقعت مع المجر في 4 يونيو 1920، وترتب عليها أن فقدت المجر حوالي نصف مساحتها، وضمت رومانيا إقليم ترانسلفانيا الغني بمناجمه.

5- معاهدة سيفر

عُقدت مع تركيا في 10 أغسطس 1920م؛ فقد الأتراك بموجبها إمبراطوريتهم في أوروبا ما عدا القسطنطينية وشاطئ بحر مرمرة، وشبه جزيرة غاليبولي، كما فقدوا ممتلكاتهم في آسيا، واستقلت الحجاز ووضعت سوريا وفلسطين والعراق تحت الانتداب، وعُهد إلى

اليونان بإدارة إقليم أزمير لمدة خمس سنوات. لكن قيام مصطفى كمال أتاتورك بحركته وتجدد الحرب بين الأتراك واليونان حال دون تنفيذ تلك المعاهدة.

6- معاهدة لوزان

عُقدت في يونيو 1923م وبموجبها تم تعديل حدود تركيا الأوربية، مع احتفاظ تركيا ببعض جزر الدردنيل، وتنازلت تركيا عن حقوقها في مصر وليبيا والسودان، وعن جزر بحر إيجه لإيطاليا واليونان، وعن قبرص لبريطانيا.

الفصل العاشر

أوروبا بين الحربين

في الوقت الذي سقطت فيه معظم عروش القارة الأوروبية عقب الحرب العالمية الأولى، زادت الملكية في بريطانيا قوة وتمكناً في نفوس الشعب البريطاني؛ حيث أن ملك بريطانيا يتمتع بمركز سامي يستمدّه من الإمبراطورية التي هو رمزها ونقطة الاتصال بين أجزائها، وقد وضحت المكانة التي يشغلها العرش في عام 1935م عندما احتفل الشعب بمرور خمسة وعشرين عاماً على تتويج الملك "جورج الخامس (1910-1936)م؛ ذلك الاحتفال الذي أظهر البساطة والروح القوية التي تمتع بها الملك وزوجته "الملكة ماري"، غير أن تلك المكانة قد تعرّضت لصدمة غير مسبوقة في العام التالي مباشرة بعد وفاة جورج الخامس حيث حاول ابنه الملك الجديد "إدوارد الثامن الزواج من أمريكية مطلقة تدعى مدام "واليس سيمبسون، محدثاً بذلك أزمة دستورية زعزعت عرش الإمبراطورية البريطانية وأثارت عاصفة من التساؤلات عن حقوق الملك وواجباته في ظلّ دستور غير مكتوب.

وُلِدَ "إدوارد ألبرت كرستيان جورج أندرو باتريك ديفيد في 23 يونيو عام 1894م، وعُرف بين أسرته باسم "ديفيد". كان إدوارد يتمتع بجاذبية ظاهرية منذ طفولته، غير أنه قد أثبت منذ صغره تمرداً على الموروث الملكي الذي كان يملئ عليه كل تصرفاته؛ فكان إدوارد يعترض على ارتداء الملابس الرسمية والالتزام بالتقاليد الملكية حتى أنه تذرّ ذات مرة وهو في سن العاشرة قائلاً: "كنت أتمنى لو لم أكن أميراً". لم يكن من الغريب أن يكبر إدوارد ليصبح كارهاً لقيود الملكية غير مكترباً بواجباته والتزاماته كولي للعهد؛ حيث اعتاد في شبابه حضور الحفلات الراقصة في الملاهي الليلية وفي بيوت أصدقائه، فضلاً عن شغفه بالصيد وسباق الخيل، مما لفت أنظار العامة إلى وليّ العهد الذي يتصرف بطيش وحرية لم يعتادها الشعب الإنجليزي المحافظ. وعلى الرغم من ذلك ازدادت شعبية الأمير إدوارد عندما رأى الجميع اهتمامه البالغ بشئون الدولة أثناء الحرب العالمية الأولى حيث طلب بإلحاح شديد المشاركة في صفوف القتال، إلا أن ذلك لم يكن مسموحاً لوليّ عهد

بريطانيا؛ ليس خوفاً على حياته فحسب، بل أيضاً خوفاً من أن يُؤخذ أسيراً فيكون بذلك ورقة ضغط رابحة لدى الأعداء. ونزولاً على رغبة الأمير الشاب تم تكليفه ببعض المهام الإدارية التي نجح في آلية تنفيذها بدقة، هذا بالإضافة إلى حرصه على زيارة جرحى الحرب للتخفيف عنهم. بالأخذ في الاعتبار العديد من تصرفات إدوارد الطائشة قد تكون رغبته الشديدة في المشاركة في الحرب درياً من التهور والرغبة في تجربة كل ما هو ممنوع، وليست بالضرورة برهاناً على وطنيته وانشغاله بهموم دولته.

بينما كان جورج الخامس في فراش الموت، قام ولي العهد إدوارد بإلغاء توقيت "ساندرينجهام" الذي كان معمولاً به في بريطانيا منذ عام 1901م؛ فكانت هذه بداية غير موفقة لولي العهد الشاب الذي استفز رجال الحكم ولفت نظرهم مبكراً لطبيعته المتمردة الكارهة للتقاليد الملكية. يجدر الذكر أن رئيس الوزراء "ستانلي بولدوين" كان حينها في سنّ السبعين ووزير المالية "تيفيل تشامبرلين" في أواخر الستينات، بينما كان إدوارد الثامن في الأربعين من عمره، لم تكن تلك الفجوة بين الأجيال في صالح الملك الشاب الذي لم يلق الحماس المتوقع من رجال الدولة بسبب صغر سنّه وعلاقاته غير اللائقة مع العديد من السيدات المتزوجات، لذا رأى رجال الدولة أنه ينبغي على إدوارد أن يلتزم بكل مسؤوليات وتقاليد منصبه الجديد كملك لعرش بريطانيا مهما كان كارهاً لتلك التقاليد.

اعتلى إدوارد الثامن العرش في 20 يناير عام 1936م وتنازل عنه في 10 ديسمبر من نفس العام، ورغم انشغال العالم بأسره بالقضايا الكبرى التي وقعت في هذا العام- مثل غزو إيطاليا لإثيوبيا والحرب الأهلية الإسبانية وازدياد التحركات النازية في أوروبا- إلا أن اهتمام الحكومة والشعب البريطاني كان منصباً على قضية زواج ملكهم الشاب، ورغم أن "قانون الزواج الملكي" "Royal Marriages Act" الصادر عام 1772م اشترط أن يحصل أفراد الأسرة الملكية على موافقة الملك في حال رغب أحدهم في الزواج، إلا أنه أغفل تحديد مواصفات وإجراءات زواج الملك نفسه، مما ساهم في تصعيد أزمة زواج الملك إدوارد.

ازدادت شعبية إدوارد في بريطانيا والأراضي الخاضعة لها عندما كان ولياً للعهد، حتى أنه اشتهر باسم "الأمير الساحر" بين الأجيال الشابة التي عقدت آمالاً كبيرة على الملك الشاب

ذو الآراء العصرية، غير أن تولّيه العرش لم يكن على هوى رجال الدولة نظراً لمعرفةهم بشخصيته المتمردة وتصرفاته الطائشة التي لا تتناسب مع مفهومهم التقليدي عن الناج البريطاني، فقد تحدث رئيس الوزراء بولدوين مع زعيم المعارضة "كليمنت أتلي" في حفل تنصيب الملك عن قلقه تجاه مدى استعداد الملك الشاب للالتزام بسياسة الدولة، فلم يقتنع بولدوين بكفاءة إدوارد لتولي الحكم، كما لم يعجبه جرأة إدوارد في التعبير عن آرائه في القضايا السياسية دون الرجوع لمستشاريه، خاصة فيما يتعلق بتأييده لخلق علاقات ودية بين بريطانيا وألمانيا وهو الأمر الذي تسبب في خلق عداوة شديدة بينه وبين كثير من رجال الدولة. أما عن أعضاء الطبقة الارستقراطية فلم يعجبهم المستوى المنحدر لذوق إدوارد خاصة فيما يتعلق بمرافقة السيدات المتزوجات، حتى أنهم وصفوا قصر باكينجهام بأنه "ملهى ليلي على الطراز الأمريكي".

على الرغم من شعبية الملك إدوارد لأسباب عديدة منها جاذبيته وتواضعه واستعداده لكسب أصدقاء من كافة الطبقات بالإضافة إلى حرصه على تحسين أحوال الشعب، إلا أنه لم يمتلك التفكير أو المنطق السليم سواء في اختيار أصدقائه أو في تعبيره عن آرائه السياسية، ولم يتعامل مع الملكية بنفس التقدير مثل والده جورج الخامس الذي حظي بحب وتقدير الشعب البريطاني كونه تجسيداً لقيم ومبادئ العصر الفيكتوري. ارتبط إدوارد في حياته بثلاث علاقات حب قوية قبل أن يتعرف على الأمريكية واليس سيمبسون.

وُلِدَت "بيسي واليس وارفيلد" في عام 1896م في مدينة "بالتيمور" بولاية ميريلاند الأمريكية وكانت تنتمي لعائلة من الطبقة الوسطى. تزوجت واليس للمرة الأولى في الولايات المتحدة، وعندما فشل زواجها ذهبت إلى أوروبا حيث تعرفت على زوجها الثاني "إرنست سيمبسون". قابل إدوارد مدام واليس سيمبسون للمرة الأولى عن طريق عشيقته الثالثة فيرنس التي طلبت من سيمبسون أن تراعي الأمير وتقوم بتسليته أثناء غيابها خارج إنجلترا لعدة شهور في ربيع عام 1934م؛ ومن هنا نشأت علاقة الحب بين إدوارد ومام سيمبسون، وعندما اعتلى إدوارد العرش كانت علاقتهما قد توطّدت تماماً.

لم تفهم واليس سيمبسون الإجلال الذي تتمتع به الأسرة المالكة بسبب نشأتها وانتمائها الطبقي، لذلك لم تُعامل إدوارد بالوقار والتقدير الذي اعتاد عليه مما جعله يجذب

إليها رغم جمالها المتواضع، وازداد ارتباطه بسيمبسون عندما بدأت صداقتهما تتوطد؛ حيث اندهش أصدقاؤهم في إحدى الحفلات التي كان دائماً ما يقيمها إدوارد حينما ضربته سيمبسون على يده بطريقة مازحة لتوبيخه أمامهم لمجرد أنه تذوق الطعام دون استخدام شوكة. استغلت سيمبسون فهمها لشخصية إدوارد الضعيفة وفرضت سيطرتها وذوقها الشخصي على استراحته المفضلة في "فورت بيلفيدير فقامت بطرد بعض الخدم وأعدت ترتيب المنزل بالكامل، بل تجرأت سيمبسون ذات مرة في إحدى حفلات إدوارد في قلعة بالمورال" باسكتلندا وسارعت لتستقبل أخيه "ألبرت دوق يورك" الذي سيخلف إدوارد لاحقاً ليصبح "الملك جورج السادس" - وزوجته "إليزابيث" فور وصولهما وكأنها سيدة المنزل، مما أغضبهما كثيراً، حتى أن ألبرت قال أنه قد "خسر صديقه الأقرب بوفاة والده الملك جورج الخامس والآن هو على وشك خسارة صديقه الآخر"، مشيراً إلى إدوارد الذي تمادى في منح سيمبسون صلاحيات ليست من حقها. يجدر الذكر هنا أن دعوة إدوارد لسيمبسون للإقامة في قلعة بالمورال أثار غضب الأسرة المالكة والمجتمع الانجليزي بأسره نظراً للأهمية التاريخية التي حظيت بها بالمورال حيث أنها كانت الاستراحة الخاصة للملكة فيكتوريا ومن بعدها الملكة ماري - والدة الملك إدوارد-؛ لاشك أن تقديس المجتمع البريطاني للعائلة الملكية لم يكن في صالح سيمبسون على الإطلاق حيث جعلها ذلك دائماً في وجهة نظر الجميع منبوذة لأنها لا تنتمي لتلك الطبقة.

اشتهر إدوارد الثامن منذ فترة إمارته لويلز باهتمامه الاجتماعية وميوله إلى الاختلاط مع العوام، ولكنه فشل تماماً في كسب أيّ أصدقاء في عالم السياسة، وهو ما جعل موقفه ضعيفاً إذ لم يجد له حليفاً قوياً يسانده في دفاعه عن قضيته ضد الحكومة. ربما لم يكن إدوارد بالفعل الملك المناسب لعرش بريطانيا في تلك الفترة من تاريخ أوروبا حيث أظهر في مواقف عديدة حبه لذاته وحرصه على تحقيق رغباته الشخصية دون الوضع في الاعتبار المصلحة العامة لبريطانيا.

لاشك أنه في هذا الوقت العصيب من تاريخ بريطانيا شعر الشعب الانجليزي أن المؤسسة الملكية قد خذلتها، فكيف للملك الذي طالما حظي بمكانة مقدسة لدى الشعب أن يتخلى عن شعبه من أجل امرأة؟ ربما شعر الشعب البريطاني بالحزن لرحيل إدوارد أو

التعاطف معه أحياناً، لكن ليس هناك شك أن الإحساس الأقوى هو الغضب واللامبالاة ليس فقط تجاه إدوارد، بل تجاه مفهوم العرش ذاته. لذا حرصت الحكومة الانجليزية على التخفيف من حدة الأزمة والآثار المترتبة عليها من خلال رسم صورة مزيفة أمام العالم بأسره حتى توحي بأن ما حدث لم يؤثر على هيبة واحترام المؤسسة الملكية.

اتسم موقف رئيس الوزراء ستانلي بولدوين منذ بداية الأزمة بالعدوانية تجاه إدوارد وبالحماس الشديد للملكية البريطانية، فلم يظهر أي تعاطف مع الملك ولم يتكبد عناء محاولة إقناعه بالرجوع عن قراره، بل سارع في حشد الآراء ضده وكأنه عدو لدود، ولكن ربما كان هجوم رئيس الوزراء على الملك إدوارد وإصراره أن يحسم الأمر في أقل وقت من أهم إنجازات بولدوين السياسية خاصة فيما يتعلق بموقف بريطانيا الدولي حيث كانت الحكومة قلقة جداً تجاه أية رد فعل قد يضر بمصالح بريطانيا. على الجانب الآخر، لم تستغرق خلافات الملك مع الحكومة إلا بضعة أسابيع قرر بعدها التنازل عن العرش؛ فلم يحارب إدوارد طويلاً من أجل الحفاظ على عرشه كما لم يظهر أي حنكة في التعامل مع الأزمة، وهو ما أثار استياء وغضب الكثير ممن حوله من العائلة الملكية والحكومة حيث أنهم رأوا مدى تهاون الملك في الحفاظ على عرش بريطانيا وهو ما أكد على ضعف شخصيته كحاكم لإمبراطورية مترامية الأطراف. بل لعل البعض عقد مقارنة بسيطة بين إدوارد الثامن أحد أفراد "أسرة وندسور"، وبين الملكة إليزابيث الأولى إحدى ملوك "أسرة التيودور"؛ تلك المقارنة التي بيّنت أنه في الوقت الذي رفضت فيه الملكة إليزابيث الأولى الزواج من أجل الحفاظ على عرش بريطانيا، وجدوا أنفسهم أمام ملك يترك العرش ذاته من أجل امرأة.

☒ موقف بريطانيا من أطفال يهود ألمانيا

عرف هذا الموقف في تاريخ بريطانيا باسم "كيندترانسبورت" وهو مصطلح ألماني يشير إلى عمليات نقل أطفال اليهود بالقطار في الفترة من ديسمبر عام 1938م وحتى أغسطس عام 1939م. يهدف البحث إلى دراسة جهود المنظمات الخيرية البريطانية في إنقاذ الأطفال اليهود المتضررين من حكم النازية عن طريق نقلهم من ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا إلى بريطانيا. ينتقد البحث سياسة الحكومة البريطانية تجاه اللاجئين

حيث اشترطت ألا تُشارك الحكومة في الدعم المالي أو التنظيمي لعمليات نقل اللاجئين، وأن يدخل الأطفال إلى بريطانيا بمفردهم دون أن يكونوا مصحوبين بذويهم، بالإضافة إلى ضرورة عمل منظمات اللاجئين الخيرية على توفير موطن دائم لهؤلاء الأطفال في غضون عامين من استقرارهم في بريطانيا، أي أن تكون بريطانيا محطة مؤقتة لهم.

كان نقل الأطفال من ألمانيا إلى بريطانيا تحت رعاية "حركة رعاية أطفال ألمانيا" التي تأسست في نوفمبر 1938م بقيادة مشتركة مسيحية ويهودية وتغير اسمها في مارس 1939م إلى "حركة الأطفال اللاجئين وكان مقرها منزل بلومزيربي في لندن؛ وكان دورها الأساسي هو توفير الأسر المعيلة وتثقيف المجتمع بشأن أنشطة الحركة والإشراف على معسكرات اللاجئين. قامت حركة الأطفال اللاجئين بتشكيل لجان إقليمية في مدن عديدة منها مدينة مانشستر وبيرمينجهام وبريستول وكامبريدج وياترسي، وبحلول سبتمبر 1939م كان هناك 12 لجنة محلية و65 لجنة قطاع والتي بلغت 175 لجنة بنهاية الحرب.

يجدر الذكر أن عمليات نقل الأطفال من ألمانيا لم تقتصر على المؤسسات اليهودية فقط، بل كانت هناك مشاركة من مسيحيي بريطانيا خاصة التابعين لجماعات الكويكرز البروتستانتية، حيث أنه مع احتدام الموقف في ألمانيا والنمسا تضاعفت أعداد الجمعيات والمؤسسات الأهلية المسيحية واليهودية وتضافرت جهودها حتى أصبح هناك مركزان أساسيان يديران عمليات الإنقاذ: المركز المسيحي في منزل بلومزيربي والمركز اليهودي في منزل ووبيرن ولكي تتمكن حركة الأطفال اللاجئين من إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأطفال في أسرع وقت، لم تنتظر توفير أسرة معيلة لكل طفل، بل سارعت في إعداد معسكرات مؤقتة لاستقبال الأطفال وتسكينهم بها حتى يتم نقلهم لاحقاً لأماكن أفضل مع أسرهم البديلة.

عملت حركة الأطفال اللاجئين البريطانية مع مكتب هجرة الأطفال في ألمانيا الذي أسسه مجلس يهود ألمانيا عام 1933م وكانت له مكاتب عديدة في برلين؛ وكانت عملية نقل الأطفال تبدأ بإرسال ولي الأمر استمارة طلب تهجير مع صورة شخصية للطفل إلى مكتب هجرة الأطفال في الأقاليم والتي كانت تُرسل بدورها إلى مكتب هجرة الأطفال الرئيس

في برلين، وكانت الاستمارة عبارة عن تفويض من ولي الأمر إلى حركة الأطفال اللاجئين لتولي شئون أطفاله والموافقة على أي خطوة تتخذها اللجنة لصالح الأطفال، في نهاية الاستمارة كان هناك سؤال عن ديانة الطفل حيث كان على ولي الأمر أن يختار ما بين الآتي: "يهودي أورثوذكسي - يهودي ليبرالي - يهودي غير ممارس - بروتستانت - كاثوليكي - كويكر - حر العقيدة، وكان على ولي الأمر أن يوقع على استمارة تضمن موافقته على تسكين أولاده لدى أي أسرة مهما كانت عقيدتها، حيث واجهت الحركة في بدايتها مشكلة في تسكين الأطفال، إذ كان أغلب الآباء يصرون على إيداع أبنائهم لدى أسر يهودية حتى يضمنوا لهم المعاملة العادلة والالتزام بالعادات اليهودية، وبالطبع لم يكن سهلاً على الحركة أن توفر أسر يهودية لاستضافة آلاف الأطفال اللاجئين حيث أن الإقبال من يهود بريطانيا على استضافة الاطفال اللاجئين كان محدوداً جداً مقارنة بإقبال الأسر المسيحية.

بعد قبول طلب الطفل كانت أوراقه تُرسل مع شهادة صحية إلى حركة الأطفال اللاجئين في لندن ومنها إلى مكتب وزارة الداخلية لإصدار تصريح دخول رسمي نصه كالتالي: "تم إصدار وثيقة الهوية هذه بموافقة حكومة جلالة ملك بريطانيا للسماح للأطفال بالدخول إلى المملكة المتحدة بغرض التعليم تحت رعاية لجنة المساعدة الداخلية للأطفال، ولا تحتاج هذه الوثيقة لتأشيرة دخول "فيزا". بعدها كانت تصريحات الدخول تُرسل بالبريد الجوي إلى ألمانيا وتُسلم للشرطة الألمانية أولاً ثم إلى منظمات الهجرة لتقوم بتوزيعها على الأطفال.

أما اختيار الأطفال فكان يعتمد بشكل أساسي على مدى خطورة وجودهم في ألمانيا؛ وعليه كانت الأولوية للأيتام، حتى أن بعض الآباء كانوا يتركون أبنائهم على عتبات الملاجئ لمنحهم فرصة أكبر لنقلهم ضمن عمليات كندرترانسبورت؛ ثم يأتي بعدهم الأطفال الذين فقدوا آبائهم في أحد معسكرات الاعتقال أو المراهقين ممن كانوا هم أنفسهم في حالة إطلاق سراح مشروط برحيلهم عن ألمانيا في أسرع وقت. يجدر الذكر أن حركة الأطفال اللاجئين حرصت في اختيارها للأطفال على مراعاة المجتمع الانجليزي، بمعنى أنها كانت تميل إلى اختيار الأطفال الأكثر قبولاً ولياقةً لضمان اندماجهم في المجتمع الانجليزي

دون إثارة نفور أو كراهية الأسر المضيفة، وفي سبيل إعداد الأطفال للرحيل كان وليّ الأمر يقوم بتعليم ابنه أو ابنته اللغة الانجليزية لضمان قدرتهم على التعبير عن أنفسهم أثناء إقامتهم في بريطانيا، بالإضافة إلى تعليمهم بعض المهارات التي قد تمكنهم من الحصول على حرفة ما إذا لزم الأمر؛ حيث سمحت الحكومة البريطانية للأولاد بالعمل في الزراعة والصناعة وللفتيات بالعمل في الخدمة المنزلية. كما كانت هناك تنبيهات على الأطفال من آبائهم ومن منظمي حركة الأطفال اللاجئين بأن يلتزموا بحسن التصرف والظهور بشكل محبوب ولائق، والأهم من ذلك أن الحركة حرصت على إجراء الكشف الطبي على الأطفال للتأكد من عدم قبول أي طفل ذي احتياجات خاصة وذلك لصعوبة توفير أسرة معيلة له.

كان هناك فئتان من الأطفال اللاجئين: أحدهما مكفول من أسرة محددة، والآخر غير مكفول. فكان الطفل المكفول مسبقاً بالطبع أفضل حالاً من غير المكفول، حيث كانت هناك أسرة في انتظاره في بريطانيا تم الاتفاق معها مسبقاً من بين أصدقاء أو أقارب الطفل، أو ممن تطوعوا لاستضافة الطفل استجابة لإحدى إعلانات الصحف، وكانت الأسرة المضيفة تتولى رعاية الطفل وتعليمه حتى يبلغ سن الثامنة عشر، أما الطفل غير المكفول فكان يودع في معسكرات أو ملاجئ مؤقتة حتى يُعثر له على كفيل إذا توفّر، ولا شك أنه كان هناك فرق شاسع بين الطفل المكفول وغير المكفول حيث كان الأول يعلم أن هناك أسرة محبة تنتظره وعلى استعداد لتحمل مسؤوليته، أما الآخر فكان عليه أن يتحمل الضغوط النفسية المتوقعة نتيجة لفراق أبويه وأصدقائه، بالإضافة إلى قلقه البالغ بسبب انقطاعه عن دراسته وانتظاره فترات طويلة للانتقال مع أسرة معيلة وبدء حياة مستقرة.

من الأسباب التي ميزت حركة كيندرترانسبورت عن غيرها من المحاولات العديدة لمساعدة اللاجئين هو سرعة التنظيم وكبر حجم العملية التي وصفت بأنها أكبر حركة بريطانية موجهة لإنقاذ فئة محددة من أي مجتمع؛ ويجدر الذكر أنها لم تكن تلك العملية الأولى لدخول لاجئين من دول متضررة إلى بريطانيا، فقد استقبلت بريطانيا لاجئين في أغسطس 1936م أثناء الحرب الأهلية الأسبانية، واستقبلت أطفال لاجئين من بلجيكا أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن ما جعل حركة كيندرترانسبورت مميزة عن غيرها هو

السرعة المتناهية في نقل الأطفال بمجرد صدور القرار في أواخر نوفمبر 1938م وحتى بدء عملية النقل الأولى التي تمت في الثاني من ديسمبر 1938م. تمكنت حركة كيندرترانسبورت بنهايتها من إنقاذ 1000 طفل تقريباً شهرياً في مجموعات مقسمة إلى بضع المئات من الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين ثلاثة شهور وحتى سبعة عشر سنة). ويجدر الذكر أنه أثناء العشرة أشهر التي شهدت جهود حركة الأطفال اللاجئين كانت هناك عمليات إنقاذ من جهات خيرية مختلفة نجحت جميعها في نقل 9354 طفل منهم 7482 طفل يهودي أي بنسبة 80% من إجمالي من دخلوا بريطانيا، بالإضافة إلى 431 طفل تم نقلهم قبل أحداث "ليلة الكريستالناخت" عن طريق لجنة المساعدات الداخلية، و700 آخرين تم نقلهم عن طريق مؤسسة "شباب عالية" و100 آخرين تم نقلهم عن طريق "اتحاد التجمعات اليهودية الأورثوذكسية" ، وبذلك تخطى العدد الذي تم إنقاذه في تلك الفترة 10 آلاف طفل بتكلفة قدرها مجلس يهود ألمانيا بحوالي 290 ألف جنيه استرليني.

رغم أن الحكومة البريطانية وافقت على دخول أطفال اليهود المتضررين من النظام النازي فقط من أجل تهدئة الرأي العام، كما أنها لم تساهم على الإطلاق في تنظيم أو إدارة أو تمويل عمليات النقل، إلا أنها بمجرد الموافقة قد ساهمت في إنقاذ ما يزيد عن عشرة آلاف طفل لم يكن لهم ملجأ حيث أغلقت أمامهم الأبواب، ولكن ما يستحق التقدير هو السماح للمنظمات اليهودية الخيرية بتوفير التعليم الديني والخدمات المختلفة التي هونت الأمر على الأطفال، ناهيك عن حرص بريطانيا على إخلاء الأطفال اللاجئين مع الأطفال الانجليز في وقت الحرب عندما خشيت من هجوم ألماني على المدن الكبرى؛ فلم تتركهم دون حماية أو ملجأ لأنهم ليسوا انجليز. ورغم أن اتجاه بريطانيا لسياسة الاعتقال الشاملة أثناء الحرب أنتقد كثيراً، إلا أنه كان إجراءً وقائياً لا مفر منه، ولا بد أن يؤخذ في الاعتبار هنا المعاملة التي كان لا بأس بها في معسكرات الاعتقال والتي سمحت للكثير من الأطفال والبالغين استكمال تعليمهم بجهود المنظمات اليهودية الانجليزية.

الفصل الحادي عشر

الحرب العالمية الثانية (1939-1945)م

عندما بدأت مطامع ألمانيا تظهر في تشيكوسلوفاكيا أكد رئيس الوزراء تشمبرلين بمجلس العموم في 5 مارس 1939م "إن غالبية الشعب البريطاني مقتنع بوجود التقيد بسياسة الحفاظ على السلام، أما الآن فلا يسعني إلا أن أشارك هذا الشعب خيبة أمله"، وفي 11 مارس قدمت الحكومة لمجلس العموم كتابها الأبيض الخاص ببرنامج الدفاع باستئناف التسلح، لحمايتها ضد العدوان المحتمل، وفي 30 مارس وبعد توغل الألمان في تشيكوسلوفاكيا أكد تشمبرلين في مجلس العموم: "في حالة وجود أي اعتداء على بولندا، فإن حكومتنا مضطرة لمساعدتها بكل ما في وسعها"، وهو ما أكد عليه أيضًا في 31 مارس.

بتحرك الجيش الألماني لبولندا في سبتمبر 1939م بدأت أعظم حرب دموية في تاريخ العالم وأوسعها نطاقًا وأشدّها تدميرًا، وكانت مشاركة دول العالم في حلفين كبيرين؛ دول الحلفاء: وعلى رأسها (بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفيتي، ... إلخ) ودول المحور: وعلى رأسها (ألمانيا، إيطاليا، اليابان، ... إلخ)، ففي اليوم التالي للاعتداء الألماني طرح أحد أعضاء مجلس العموم مشروع قانون يقضى بحق الحكومة في تجنيد كل الذكور الأصحاء ما بين سنّ (18-40) عامًا إذا احتاجت بريطانيا لذلك، فأرسلت الحكومة البريطانية تلغرافًا إلى وزارة الخارجية الألمانية مؤكدة أنه في حالة استمرار العدوان سنضطر للتدخل، وعليه ففي 3 سبتمبر أعلن رئيس الوزراء البريطاني أنه بدءًا من اليوم تُعدّ بريطانيا في حالة حرب مع ألمانيا، وقد أيد حزب العمال الحكومة حين أعلن زعيم الحزب آرثر جرينود في البرلمان أن حزب العمال يساند بكل قوته تصرفات الحكومة ضد ألمانيا.

وفي أعقاب غزو الألمان هولندا وبلجيكا استقال تشمبرلين، وحل محله تشرشل الذي تحدث بمجلس العموم: "ليس لدى ما أقدمه سوى الدم والعمل والعرق للنصر على الإرهاب"، فأرسلت بريطانيا تلغرافًا للرئيس روزفلت توضح حاجتها الملحة للأسلحة الجوية،

ومنذ بداية عام 1941م كثُر الحديث داخل البرلمان البريطاني عن مشروع " قانون الإعارة والتأجير " الأمريكي - سوف يذكر لاحقاً-، ما بين مؤيد ومعارض لها حتى طلب أحد أعضاء البرلمان ألا يتم توقيع أى عقود بموجب هذا القانون مع الولايات المتحدة إلا بالرجوع إلى البرلمان، وقد رفض مجلس وزارة الحرب هذا الطلب حيث إنه يعارض صلاحيات الهيئة التنفيذية المتعلقة بعقد المعاهدات، وفي 18 يونيو تحدث تشرشل بمجلس العموم وقال: " إذا خسرتنا المعركة فإن العالم بأسره بما فيه الولايات المتحدة سيغرق في بحر من الظلمات وسيصبح العالم أكثر شراسة ويتأخر عن ركب الحضارة والعلم، لذلك دعونا نعد أنفسنا لنقوم بواجبنا".

في 15 أغسطس 1945م قام تشرشل بإلقاء بيان استسلام اليابان، ودعا كل من رئيس مجلس العموم والأعضاء للحضور إلى كنيسة سانت مارجاريت " لتقديم الشكر للرب الذي أنهى الحرب المريرة، وبعد ذلك قرأ رئيس المجلس خطاب الملك الذي أكد فيه: " أن استسلام اليابان أنهى حرب دامت ست سنوات وسببت خسائر للعالم كله، سيتابع وزرائى العمل بجهد، وسيطرح الملك على البرلمان قريباً طلب لميزانية خاصة بتعمير ما دمرته الحرب.

أما فى الولايات المتحدة فقد احتفظ روزفلت خلال الحرب بعلاقات طابعها الإنسجام مع الكونجرس، فبسبب التوتر على الساحة الأوروبية قدم روزفلت فى يناير 1939م ميزانية ضخمة لزيادة التسليح، ثم طالب روزفلت فى 21 سبتمبر 1939م من الكونجرس تعديل قانون الحياد، وقد رحب العديد من أعضاء الكونجرس برفع حظر بيع الأسلحة لأن ذلك يتمشى مع مصالح الولايات المتحدة المستقبلية إلا أنه لقى معارضة من أصحاب سياسة العزلة الذين يرون أن ذلك من شأنه أن يدخل البلاد فى حرب أوروبية، وفى 3 نوفمبر ألغى الكونجرس حظر بيع الأسلحة، وسن قانون "الدفع والحمل" " Cash & Carry" سُمح فيه للدول المتحاربة أن تبتاع نفدًا من الأمريكيين ما تحتاج من أسلحة بشرط ألا تنقل على بواخر أمريكية.

وفى 3 سبتمبر 1940م أعلنت الحكومة الأمريكية أمام الكونجرس عن اتفاق مع الحكومة الإنجليزية تتنازل فيه لبريطانيا عن خمسين مدمرة عسكرية مقابل إنشاء قواعد

بحرية وجوية في نيوفونلاند وبرمودا وبهاما، وفي 16 سبتمبر 1940م أقر الكونغرس أول تجنيد إجباري زمن السلم في التاريخ الأمريكي، وتم إقرار القانون بفارق صوت واحد فقط.

طالب روزفلت في 6 يناير 1941م الكونغرس بالموافقة على ما سُمي بمشروع " قانون الإعارة والتأجير"، ومن أجل الأمن القومي الأمريكي صوت الكونغرس في 11 مارس بالموافقة على هذا القانون والذي سمح للرئيس ببيع أو نقل أو إعارة أو منح أي سلاح دفاعي لأية أمة، شريطة أن يقوم فقط باستشارة أركان حرب الجيش والبحرية، وفي 16 مايو وافق الكونغرس على طلب الرئيس روزفلت والخاص بضرورة الاستعداد العسكري وزيادة الميزانية اللازمة لتسليح الجيش، بل وأجاز الكونغرس في 22 مايو " قانون الطوارئ" الذي أعطى الحكومة سلطة تجنيد أي شخص لأداء أي عمل تستلزمه مصلحة البلاد. في 7 ديسمبر 1941م أعلن الرئيس روزفلت بالكونجرس: " أن السابع من ديسمبر تاريخ سيبقى شائناً، فهذا العمل الفظيع الذي قامت به اليابان لا نقدر أن نسكت عليه أو نتحملة أو ننساه مدى الحياة، والذي زاد من هذه الوقاحة إعلان ألمانيا وإيطاليا الحرب علينا، لذلك أطلب من أعضاء الكونغرس الموافقة على اقتراح الرئاسة بإعلان الحرب"، فوافق مجلس الشيوخ بالإجماع على إعلان الحرب، أما مجلس النواب فلم يعارض سوى عضو واحد وهو النائبة "جانيت رانكين"، وبعد ساعة وقّع مرسوم الحرب وأُرسل إلى البيت الأبيض فوقعه روزفلت وهو ما أشعر الألمان بضالة أملهم في النصر النهائي.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عُقدت عدة مؤتمرات كان أهمها مؤتمر طهران 1943م والذي أشار تشرشل إلى أهميته في مجلس العموم قائلاً: " أن مؤتمر طهران هو أعظم تركيز للسلطة رآه العالم لأن الشخصيات التي حضرته تمسك بين يديها سعادة البشرية المقبلة"، حيث إن هذا المؤتمر وضع الخطط لإنهاء الحرب وإعادة تنظيم أوروبا بما في ذلك تقسيم ألمانيا، هذا في الوقت الذي أشار روزفلت في خطابه أمام الكونغرس الذي ألقاه لدى عودته من مؤتمر طهران فقد قال: " إن بريطانيا والاتحاد السوفيتي وأمريكا والصين يمثلوا ثلاثة أرباع سكان الأرض، إنه إذا اتحدت هذه الدول فإنها تستطيع منع قيام أي حرب جديدة"، وفي فبراير من نفس العام كان ثاني هذه المؤتمرات هو مؤتمر

يالتا وفيه اتفق رؤساء كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي على الصورة النهائية للأمم المتحدة، وعلى للتسوية السياسية لأوروبا والشرق الأقصى، كما أيدوا مبادئ مؤتمر طهران والتأكيد على تقسيم ألمانيا دون قيد ولا شرط، كما قرروا سراً التزام السوفيت بدخول الحرب ضد اليابان، وأكدوا على ضرورة محاكمة جميع الألمان لمسئوليتهم عن الحرب العالمية الثانية، وقد أخبر روزفلت الرئيس الأمريكي رئيس الوزراء البريطاني تشرشل أن الولايات المتحدة لن تمكث في أوروبا لمدة تتجاوز العامين، بيد أن ما تمخضت عنه الحرب من أوضاع وما أتت به من خريطة جديدة لتوزيع القوى في ظل نسق دولي عالمي جديد - كلها حتمت على الولايات المتحدة التخلي عن مبدأ العزلة.

ثم يأتي آخر هذه المؤتمرات وأهمها وهو مؤتمر بوتسدام (17 يوليو - 2 أغسطس 1945م) وعقده كل من الرئيس الأمريكي الجديد ترومان ورئيس الوزراء البريطاني كليمنت آتلي، ورئيس الاتحاد السوفيتي ستالين، وناقش المؤتمر مسألة شكل العالم بعد الحرب، وأكد على قرارات مؤتمر "يالتا" وضرورة تقسيم ألمانيا، ونزع سلاحها وحظر الإنتاج الحربي الألماني. وأشار عضو مجلس العموم جون هند "أن مؤتمر بوتسدام قرر نزع الأسلحة الألمانية وتسليمها للحلفاء، في الوقت الذي أكد فيه العضو ج. جيفر أن التهاون في نزع الأسلحة وغلق المصانع الحربية بعد الحرب الأولى كان سبباً رئيسياً في شن ألمانيا الحرب الثانية، بينما أوصى اللورد لاثام في مجلس اللوردات بضرورة الإسراع في تطبيق بنود مؤتمر بوتسدام حتى لا يسود الجوع والمرض في العالم، وفي 16 أغسطس صرح تشرشل بمجلس العموم: "لقد تأكدنا من التجربة الأولى للقنبلة الذرية في صحراء المكسيك، وهو ما يعني أننا امتلكن سلاحاً لا يقاوم، وأكد أيضاً على أنه يجب استشارة بريطانيا فيما يخص استخدام هذه القنبلة، وبناءً عليه اتخذت أنا والرئيس ترومان - بشكل شخصي بعيداً عن المؤتمر - قرار استخدام القنبلة الذرية".

بعد تدمير مدينة هيروشيما ألقت الطائرات الأمريكية منشورات على الشعب الياباني: "اخلوا مدنكم، فبسبب رفض زعمائكم الاستسلام أعلن الاتحاد السوفيتي الحرب على بلادكم، وقررنا استخدام القنبلة الذرية، فنطلب منكم أن ينهي إمبراطوركم الحرب، وأكد ترومان أن المعلومات الخاصة بتشغيل القنبلة النووية وتصنيعها ستظل سراً في الفترة

الراهنة حتى يتمكن العلماء من تأمين المخاطر التي قد تؤدي إلى التفجير المفاجئ، وفي 14 أغسطس 1945م أعلنت اليابان استسلامها؛ حيث أصدر إمبراطور اليابان مرسوماً رسمياً بالموافقة على شروط اتفاقية بوتسدام، وأعلن أنه على استعداد لإصدار الأوامر إلى كل القوات العسكرية بوقف إطلاق النار وتسليم أسلحتهم.

كان من نتائج الحرب العالمية الثانية نشوء العديد من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فمن الناحية السياسية؛ ظهرت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أنهما أكبر قوتين في العالم، وبدأت القوى الشيوعية تصبح قوي بحسب لها ألف حساب. أما من الناحية الاقتصادية؛ فقد حدث انهيار اقتصادي لكثير من الدول الأوروبية واضطرت أمريكا إلى انقاذ الاقتصاد الأوربي بمشروع "مارشال". ومن الناحية العلمية دفعت هذه الحرب الاختراعات الحديثة والابتكار الانساني إلى الأمام. أما من الناحية الاجتماعية فقد تم فقدان أكثر من 40 مليون نسمة، ناخيك عن الجرحي والمشوهين.

الفصل الثاني عشر

الاتحاد الأوروبي في القرن العشرين

كانت تجربة الاتحاد الأوروبي هي في الأساس تجربة أوروبية للتكامل الاقتصادي، وكنتيجة للمحاولات المتكررة والمتعاقبة والتضحيات الجسيمة التي قامت بها الدول الأوروبية طيلة مدة تجاوزت الخمسين عاما، كما اتخذت هذه الدول خلال تلك الفترة مسالك عديدة لم يكتب لها النجاح فيها إلا للصيغة التي انتهت بالاتحاد الأوروبي. وإذا عدنا إلى الوراء وجدنا أن فكرة توحيد أوروبا لم تكن بالجديدة في الفكر والخطاب السياسي الأوروبي على مر القرون، حيث تعود هذه الفكرة إلى عصر التنوير في القرن الثامن لتتبلور أكثر مع نهاية الحرب العالمية الأولى عندما كثر الحديث عن بداية انحطاط أوروبا نتيجة للعداء والصراع بين شعوبها.

تجدد الإشارة إلى أنه تم التعرض إلى هذه الفكرة في الفترة الممتدة ما بين الحربين من قبل العديد من السياسيين الأوروبيين لإقامة تعاون مشترك بين الدول الأوروبية عندما دعا الكونت النمساوي "ريتشارد كودنهوف كاليرجي" عام 1923م إلى إنشاء الولايات المتحدة الأوروبية على غرار النموذج الأمريكي، ونتيجة لذلك عقد في فيينا عام 1926م المؤتمر الأول للاتحاد الأوروبي والذي ضم مندوبي 24 دولة أوروبية، وقد وافق المؤتمر على وضع الخطوط لتنظيم فيدرالي لأوروبا، وبعدها بثلاث سنوات دعا وزير الخارجية الفرنسي "أرستيدبريان" في الخامس من سبتمبر 1929م في خطابه أمام عصبة الأمم إلى إقامة اتحاد أوروبي في إطار عصبة الأمم.

من أجل تشجيع التعاون بين الدول الأوروبية مع احتفاظها بسيادتها الإقليمية، فردت ست وعشرين حكومة أوروبية على الاقتراح الفرنسي إلا أن صعود الأحزاب القومية في بعض الدول الأوروبية وتفاقم الأزمة الاقتصادية قضى على المشروع الفرنسي، عاد المشروع إلى البحث من جديد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية؛ إذ بدأ التفكير في توثيق التعاون الاقتصادي الأوروبي، مما دفع الدول الأوروبية إلى عقد عدة مؤتمرات تدرس من خلالها توثيق العلاقات فيما بينها، كما دعا ونستون تشرشل إلى إنشاء ولايات متحدة

لأوروبا تبدأ بتعاون ألماني فرنسي، حيث أن هذا الاتحاد سيكون بمثابة العلاج الأمثل لمشكلات القارة. لكي نظهر الاتحاد الأوربي بالشكل الذي هو عليه الآن مر بعدة مراحل كالتالي:

☒ اتحاد بينولوكس:

في 29 أكتوبر 1947م عقدت كل من بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج اتفاقاً جمركياً أُلغيت فيه الرسوم الجمركية، بل وفي أول يوليو 1950م أزيلت القيود التجارية ووحدت السياسة الجمركية، واتبعت الدول الثلاث سياسية جمركية موحدة نحو العالم الخارجي.

☒ المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي:

تأسست في عام 1948م وذلك في أعقاب إعلان "جورج مارشال" وزير خارجية أمريكا عن مشروعه والقائل بضرورة قيام تعاون اقتصادي بين الدول الأوروبية، وذلك لإعادة بناء الاقتصاد الأوربي بعد تدميره إبان الحرب العالمية الثانية، وقامت 16 دولة بتوقيع اتفاقية تلك المنظمة، حيث ساعدت المنظمة للوصول إلى أفضل وسيلة لدفع عملية الإنتاج والاستقرار مما ساعد في زيادة نسبة التجارة البينية، وارتفاع الإنتاج الصناعي مما زاد بدوره نسبة الصادرات إلى الدول الأخرى.

وبالموازاة مع ذلك تم التوقيع على معاهدة بروكسل عام 1948م بهدف تحقيق التعاون العسكري بين كل من فرنسا وبريطانيا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ، وبسبب تزايد الشكوك والنيات السوفياتية تجاه أوروبا الغربية تم تدعيماً لتعاون العسكري بالتوقيع على معاهدة "حلف شمال الأطلسي" 1949م، والتي ضمت بالإضافة إلى اتفاقية بروكسل عدد آخر من الدول الأوروبية بالإضافة إلى أمريكا وكندا، وفي العام نفسه تم إنشاء مجلس أوروبا بغرض حماية حقوق الإنسان والحريات العامة في أوروبا.

☒ الجماعة الأوروبية للفحم والصلب:

وكانت في الأساس فكرة "جان مونييه" مفوض التخطيط الفرنسي وراعي الدعوة لتوحيد أوروبا، والتي عُرفت بخطة "شومان" والتي تم توقيعها 1951م، وقد شملت 6 دول

(فرنسا وألمانيا + إيطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورج). وكان الغرض من هذه الجماعة إنشاء سوق أوروبية مشتركة. ولكن لماذا سميت بهذا الاسم؟؟؟

✕ المجموعة الأوروبية للدفاع:

تزامنت مع الفكرة السابقة، فمع تزايد التوتر في العلاقات بين الشرق والغرب واندلاع الحرب الكورية بدأت الولايات المتحدة الأمريكية الضغط على الدول الأوروبية للقبول بفكرة إنشاء جيش ألماني للمساهمة في الدفاع عن المعسكر الغربي وهي فكرة كانت تلقى رفضاً من العديد من الدول الأوروبية لاسيما فرنسا، وللخروج من هذا الموقف اقترح رئيس الوزراء الفرنسي "رينيهيلغن" إنشاء جماعة دفاع أوروبية كبديل لاقتراح حلف الأطلسي تخطيط الصناعات الحربية، وسمحت بإنشاء جيش وطني لألمانيا مع إخضاع القوات الأوروبية لسلطة فوق وطنية حتى لا تفرد ألمانيا بسياساتها العسكرية وتسيطر مفضية الجماعة، وتم التوقيع عليها في 19 مايو 1952م، إلا أن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضتها في 1954م.

✕ معاهدة روما:

على الرغم من أن انهيار "جماعة الدفاع الأوروبية" كانت انتكاسة شديدة، فإن الثقة في الجماعة الأوروبية ذاتها كإطار للعلاقات السلمية بين الدول الأعضاء قد نمت، فبتاريخ 25 مارس 1957م تم توقيع اتفاقيتي روما من بلجيكا ولوكسمبورج وإيطاليا وهولندا وفرنسا وألمانيا، حيث كانت الإتفاقية الأولى: خاصة بإنشاء "جماعة اقتصادية أوروبية"، أما الإتفاقية الثانية خاصة بإنشاء مجموعة أوروبية للطاقة النووية. ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن الدول الأوروبية اهتمت كثيراً بالأولى وأهملت الثانية.

✕ السوق الأوروبية المشتركة:

وهو الاسم الشائع للجماعة الأوروبية التي تكونت بعد التوقيع على معاهدة روما، ومع حلول أول يوليو من العام نفسه نجحت الدول الست الموقعة على المعاهدة على دمج كل من "جماعة الفحم والصلب"، و"الجماعة الاقتصادية الأوروبية" و"جماعة الطاقة الذرية" في منظمة واحدة وهي "الجماعة الأوروبية" أو "السوق الأوروبية المشتركة".

في عام 1970 انضمت كل من بريطانيا وأيرلندا والدانمارك. وفي العام التالي انضمت اليونان والتي انضم بعدها بأربع سنوات إسبانيا والبرتغال، وبعدهم بعقدين من الزمن انضمت النمسا والسويد وفنلندا، ويمكن إجمال أهم أهداف السوق الأوروبية المشتركة فيما يلي (إلغاء الرسوم الجمركية على الواردات بين الدول الأعضاء، إلغاء القيود الكمية على الصادرات والواردات بين دول السوق، وضع تعريفات جمركية على الواردات من الدول غير الأعضاء، إلغاء العقبات وإزالة العوائق التي تحد من انتقال العمل ورؤساء المال، اتباع سياسة زراعية مشتركة، رسم سياسة مشتركة للنقل، تعميق وتحقيق المناقشة الحرة في السوق المشتركة، تنسيق السياسة النقدية ومعالجة الاختلال في موازين المدفوعات، تحسين أحوال العمال.

✕ "الكتاب الأبيض"

في يناير 1985م قامت المفوضية الأوروبية بإعداد برنامج متكامل يستهدف خلق السوق الموحدة والذي حدد الإجراءات اللازمة لإلغاء الحواجز المادية والضريبية والتقنية قبل عام 1992م، وربط إقامة السوق مع زيادة الأموال المخصصة له. وفي أوائل ديسمبر 1985م وافق المجلس الأوروبي على اصلاح اتفاقيات المجموعة الأوروبية بالبداية في إلغاء مراقبة الأشخاص داخل المجموعة الأوروبية إلغاءً طردياً. وفي الأول من يونيو 1986م تم توقيع الوثيقة الأوروبية للوحدة في "لاهاي"، فأصبح من حق البرلمان الأوروبي في سن القوانين المتعلقة بالسوق الداخلية. ويجب أن نلاحظ أنه منذ عام 1979م تم إنشاء نظام نقدي أوروبي موحد، كما تم وضع وحدة النقد الأوربي "EUC"، وفي الحادي عشر والثاني عشر من فبراير 1988م اتفق رؤساء الدول والحكومات على الإصلاحات البنوية والزراعية وحل مشاكل الإنتاج الزراعي، والتقليل من الفوارق الاجتماعية والإقليمية. ثم في 26 و27 من نفس الشهر - لكن في العام الذي يليه - اتفق المجلس الأوربي على خطوات ملزمة بلا عودة عنها في إيجاد الوحدة الاقتصادية والنقدية لتحقيق تقدم نحو وحدة اقتصادية ومالية للسوق الأوروبية.

✕ معاهدة ماستريخت "ماستر":

جاءت كتعديل جوهرى لمعاهدة روما، وقد تم التوقيع عليها في اجتماع المجلس الأوروبى بمدينة ماستريخت بهولندا في 11 ديسمبر 1991م، تم خلالها الاتفاق على تحويل السوق المشتركة من مجموعة اقتصادية إلى وحدة سياسية ذات عملة واحدة وبالتالي فإن معاهدة ماستريخت واتفاقية الوحدة الأوروبية أسفرت عن اتفاق رؤساء وحكومات المجموعة على تكثيف أواصر التعاون بين الشعوب المعنية، فامتدت بنود الاتفاقية لتشمل الجوانب الاقتصادية والمالية والأمنية والسياسة الخارجية، ويمكننا القول بأن اجتماع نتجت عنه اتفاقية الاتحاد الأوروبى، والتي وقع عليها قادة الدول الأوروبية في السابع من فبراير 1992م، ثم أصبحت سارية المفعول منذ الأول من نوفمبر من العام التالى.

وقد حددت "اتفاقية ماستريخت" ثلاث مراحل لتحقيق الوحدة الأوروبية الكاملة، وهي:

* المرحلة الأولى (1990-1994)م

والتي تهدف إلى تحرير عمليات الدفع وحركة رؤوس الأموال بين الدول الأعضاء، بالإضافة إلى زيادة التعاون بين الهيئات العامة ومزيد من التطابق في السياسة الاقتصادية والتعاون بين البنوك المركزية والوطنية داخل المجموعة الأوروبية.

* المرحلة الثانية (1995-1998)م:

تهدف إلى استكمال الإجراءات المتعلقة بالتصديق على اتفاقية السوق الأوروبية المشتركة من قبل جميع الأعضاء، والتخلي عن سد العجز في الموازنات الحكومية عن طريق التعديل، وتقسيم أداء اقتصاديات الدول الأعضاء، والتأكد من استعدادها للدخول في المرحلة التالية.

* المرحلة الثالثة (1999-2002)م:

تهدف إلى إنشاء البنك المركزي الأوروبى والذي يقوم برسم السياسة النقدية للسوق الأوروبية، وإصدار العملة الموحدة على أن يبدأ برأس مال قدره 4 مليار.

ومن خلال هذه المراحل نلاحظ أن التكتل الاقتصادي الأوروبي يتأهب للدخول في استكمال مرحلة الاندماج الاقتصادي الكامل بإقامة الوحدة النقدية الأوروبية، وإقامة البنك الأوروبي المركزي 1999م، والسعي إلى إصدار العملة الأوروبية الواحدة الموحدة اليورو.

لم يكن طريق "معاهدة ماستر" مفروشاً بالورود؛ إذ واجهتها بعض المشاكل والتي أخذت وقتاً للتخلص منها وحلها. وأهم هذه المشكلات:

- رفض شعب الدنمارك للمعاهدة التي تنظم إجراءات الوحدة السياسية والاقتصادية.

- موافقة الشعب الفرنسي على المعاهدة، لكن كانت موافقة أشبه بالرفض، حيث وافق 50,5% ورفض 49,5% من الشعب.

- وجود بعض الشعوب وقيادات الدول التي ترفض ذوبان بلادها في أوروبا الجديدة.

☒ معاهدة أمستردام 1997م:

تلا معاهدة ماستر مؤتمر حكومي دولي آخر تمخض عنه معاهدة أمستردام والتي وقعت في الثاني من نوفمبر 1997م، والتي دخلت حيز التنفيذ 1999م، وقد نصت على إنشاء منطقة للأمن والحماية والعدالة فيما تم فيها تسهيل حرية الحركة والانتقال وتعزيز التعاون القضائي والأمني والرقابة على الحدود الخارجية للدول الأعضاء. كما أشارت إلى ضرورة التعاون المشترك في مجال السياسة الخارجية والأمن المشترك. وتوسيع السلطات التشريعية للبرلمان الأوروبي من خلال المشاركة في اتخاذ القرار من المجلس. كما نصت المعاهدة على توقيع بعض العقوبات في حالة حدوث أي مخالفة للمبادئ الأساسية للإتحاد وبخاصة في مجال احترام حقوق الإنسان. وطالبت المعاهدة بتقوية وتدعيم السياسة الاجتماعية للإتحاد الأوروبي. ويمكن القول أن هذه المعاهدة الجديدة أتت بعدة قرارات تتلخص في:

- إخضاع أي قرار يرفع الرقابة على الحدود أو باتخاذ الإجراءات موحدة تتعلق بالهجرة واللجوء السياسي للاجتماع في السنوات الخمس القادمة.

- توسيع دور الشرطة الأوروبية لمساعدة الشرطة الوطنية في مواجهة الجريمة المنظمة وتهريب المخدرات والهجرة غير الشرعية.
- التزام الحكومات الأوروبية بالتنسيق لوضع خطط من أجل إيجاد فرص عمل جديدة وتمويل من موازنة الإتحاد بهذا الغرض.
- عدم التمكن من دمج إتحاد أوروبا الغربية في الإتحاد الأوروبي ومع ذلك فالمعاهدة تتيح للإتحاد الطلب من هذه المنظمة بالتدخل للقيام بمهام إنسانية ومهام لحفظ السلام وحل الأزمات.
- الإبقاء على تركيبة الإتحاد الأوروبي التي تضم 20 مفوضاً واحد لكل دولة صغيرة واثنين لكل دولة كبرى، وذلك إلى حين توسيع الإتحاد.

☒ معاهدة نيس:

الموقعة في 2001م والتي نصت على إصلاحات مؤسسة استباقاً للتوسع إلى أوروبا الوسطى والشرقية، وذلك بإرساء إجراءات وأوزان تصويتية جديدة والمزيد من استخدام إجراءات التعاون المفرز.

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق المنشورة:

⊗ وثائق باللغة العربية:

- الدستور الفرنسي" الصادر في 4 أكتوبر 1958 وفقاً لآخر تعديلاته الصادرة في 23 يوليو 2008.

- رئاسة الجمهورية: المملكة المتحدة "النظام السياسي والاقتصادي"، مكتب الرئيس للأبحاث الاقتصادية، القاهرة، بدون تاريخ.

- مكتب العمل الدولي بجينيف: النقابات في الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة؛ مصطفى حسنى، (ب. م)، (ب. ت).

⊗ وثائق باللغة الإنجليزية:

- The National Archives: Security Matters Relating to the Abdication of HM King Edward VIII, CAB 301/101.

المذكرات الشخصية:

- مذكرات روميل: جمعها وأعدّها للنشر؛ ب. هـ. ليدل هارت، بمعاونة: لوسى ماري روميل (زوجته)، مانفريد روميل (ابنه)، الجنرال فريتز بايرلاين، تعريب وتعليق؛ فتحى عبدالله النمر، المطبعة الفنية الحديثة، 1966

- ونستون تشرشل: مذكرات تشرشل، ج1، منشورات مكتبة المنار، بغداد، بدون تاريخ.

الأبحاث العلمية:

- محمد عبد الوهاب سيد: موقف هتلر من يهود ألمانيا (1933 - 1938)م، المجلة التاريخية المصرية، العدد 45، 2007.

- محمد سيد إسماعيل (د): الأزمة الدستورية في بريطانيا 1936م، مجلة كلية الآداب بقتا، العدد 46، ج1، 2016م.

- _____ : موقف بريطانيا من أطفال يهود ألمانيا (ديسمبر 1938 -
أغسطس 1939م)، مجلة بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، العدد 53،
يناير 2020م.

المراجع العربية:

- إبراهيم درويش (د): القانون الدستوري "النظريات العامة"، دار النهضة العربية،
ط2، القاهرة، 2000.
- أحمد جلال بسيونى (د): اختلاق الحرب الباردة، "دور الولايات المتحدة فى تقسيم
العالم" (1945-1953)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013.
- أحمد محمد لطفى: تاريخ إنجلترا الاقتصادية فى العصر الحديث، ط1، مكتبة
الأنجلو المصرية، القاهرة، 1945.
- أحمد وهبان: العلاقات الأمريكية الأوربية بين التحالف والمصلحة، مكتبة زهراء
الشرق، القاهرة، 1995.
- آدموندس ملكا (د): شرح القانون الانجليزى فى ثمانية أجزاء، ط1، مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية، القاهرة، 1945.
- إدوارد تيم و.ج.أ.هاو: الحركة التعاونية فى بريطانيا، ترجمة؛ حسين المسلمانى،
مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1949.
- آرثر شليس نفر: ونستون تشرشل، قادة العالم بين الماضى والحاضر "ونستون
تشرشل"، بدون مترجم، ط1، دار الرشيد، بيروت، 1996.
- أرنست باركر: الديمقراطية الاجتماعية "سلسلة أحاديث شائقة عن الديمقراطية
الاجتماعية فى بريطانيا العظمى"، ترجمة؛ حبيب سعيد، دار الشرق والغرب،
1949.
- أرنست باركر: الملكية الدستورية فى بريطانيا، ترجمة ونشر؛ وزارة الاستعلامات
البريطانية فى الشرق الأوسط، مطبعة جامعة إكسפור، إنجلترا، (ب.ت).

- : بريطانيا والشعب البريطاني، بدون ترجمة، 1945.
- ايروك الكسندر: الدستور البريطاني ونظام الحكم فى مجموعة الأمم البريطانية، ترجمة؛ محمد الهمشرى و محمد أبو طائر ومحمد بدران ويوسف الريدى، د.ن، 1940.
- برنار غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة؛ عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1982.
- جلال يحيى (د): أوروبا فى العصور الحديثة "منذ الحرب العالمية الأولى" (الفترة المعاصرة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981.
- جورج هـ. سباين: تطور الفكر السياسى، ترجمة؛ على ابراهيم السيد، الكتاب الرابع، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- جون كنيدي (الرئيس الأمريكى): لماذا نامت إنجلترا، ترجمة؛ حسين الحوت، مطابع الدار القومية، 1951.
- أ.ج.ب. تايلور، ج. هـ. لومب، روبرت رودس جايمس، بازيل ليدل هارت، أنطوني ستور: تشيرشل "أربعة وجوه والرجل"، ترجمة؛ حسن فخر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974.
- حافظ عفيفي باشا (د): الانجليز فى بلادهم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1935.
- هـ. أ. ل. فيشر: تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (1789-1950م)، ترجمة؛ أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، القاهرة، دار المعارف،
- هاري ويست: فضائح العائلات المالكة "من سلسلة أخبار غريبة وأسرار عجيبة"، بدون مترجم، بيروت، مؤسسة الانتشار العربى، ب.ت.
- جوندولين كارتر، جون هيرز: نظام الحكم والسياسة فى القرن العشرين، ترجمة، ماهر نسيم، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، 1962.

- حافظ عفيفى باشا (د): الإنجليز فى بلادهم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935.
- حسن سيد أحمد (د): النظام السياسى للولايات المتحدة وانجلترا، دار النهضة العربية، القاهرة، ط 1 1998.
- حسن نافعة (د): معجم النظم السياسية الليبرالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، مركز البحوث والدراسات السياسية، ط 1، 1991.
- دافد وطسن دانى: تاريخ أساس الشرائع الإنكليزية "سنة الإرتقاء فى نظام الحكومة الإنكليزية" (مصدر القوانين الأساسية للحكومات الدستورية)، ترجمة؛ نقولا افندى حداد، المكتبة الشرقية، القاهرة، 1906.
- دأنيل ر. براور: العالم فى القرن العشرين "عصر الحروب العالمية والثورات"، ب. ت، مرطز الكتاب الأردنى، 1990.
- داود الضاهر: الفجر الدامى أو " تاريخ الحرب العالمية الثانية"، ج 2، ريوذى جنايرو، البرازيل، 1948.
- ر. ب. ماكالام :كيف تُحكم بريطانيا، بدون مترجم، القاهرة، مطبعة النيل، (ب.ت).
- ر. ت. مكنزى: الأحزاب السياسية فى بريطانيا، ترجمة؛ محمد مصطفى عطا، دار المعارف، 1957.
- رؤوف سلامة موسى: بريطانيا مهد الديمقراطية وموطن التقاليد، دار ومطابع المستقبل، الإسكندرية، 1993.
- رأفت غنيمى الشيخ (د): أمريكا والعالم فى التاريخ الحديث والمعاصر، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2006.
- رولان موسينييه: تاريخ الحضارات العام "القرنان السادس عشر والسابع عشر"، ترجمة؛ يوسف أسعد داغر و فريد داغر، مكتبة عويدات، بيروت، ط 2، 1987.
- رياض الصمد(د): العلاقات الدولية فى القرن العشرين، ط 3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1986.

- سعاد الشرقاوى(د):النظم السياسية فى العالم المعاصر(الدولة، المؤسسات، الحركات)، دار النهضة العربية، 2007.
- سيدنى: الديمقراطية البرلمانية الانجليزية، ترجمة؛ فاروق يوسف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970.
- صلاح الدين فوزى (د): البرلمان "دراسة مقارنة تحليلية لبرلمانات العالم"، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994.
- صلاح العقاد (د): دراسة مقارنة للحركات القومية فى (ألمانيا، إيطاليا، الولايات المتحدة، تركيا)، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، 1967.
- عبد الحليم القاضى: دراسات فى التأمينات الاجتماعية (بريطانيا، الاتحاد السوفيتى، الولايات المتحدة)، 1971م.
- عبد العظيم رمضان (د): تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة "من قيام النازية فى ألمانيا إلى الحرب الباردة، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.
- عبد الفتاح أبو عليّة (د) و إسماعيل أحمد ياغى (د): تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، 1993.
- عبدالقادر حاتم (د): التقاليد البرلمانية فى بريطانيا، الكتاب رقم (24)، وزارة الإرشاد القومى، القاهرة، 1957.
- ف.تروخانوفيسكى: سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية، ترجمة؛ عبد الحميد الجمال، مكتبة سعيد رأفت، 1976.
- فؤاد يونس: نظام الميزانية فى بريطانيا، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، مركز البحوث الإدارية، 1972.
- فاضل حسين (د)، كاظم هاشم نعمة (د): التاريخ الأوربى الحديث(1815-1939)، ط1، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، العراق، 1982.

- فرانك تاننباوم: مبادئ السياسة الأمريكية، ترجمة؛ أحمد عبد المجيد فؤاد، مطبعة الشركة للنشر، القاهرة، 1958.
- فرغلى على تُسن هريدى (د): تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001.
- لورد بريدجس: وزارة الخزانة فى بريطانيا، ترجمة؛ فؤاد يونس، المنظمة العربية للعلوم الادارية، مطبعة الاستقلال الكبرى، 1964.
- محمد قاسم، حسين حسنى: تاريخ القرن التاسع عشر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.
- مكرم سعيد: الدولار يحكم بريطانيا، دار الفكر، 1963.
- ميشيل ستيوارت: نظم الحكم الحديثة، ترجمة؛ أحمد كامل، القاهرة، دار الفكر العربى، 1962.
- نعمان الخطيب: الأحزاب السياسية ودورها فى أنظمة الحكم المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983.
- نعمة حسن البكر (د): الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية "العلاقات البريطانية - الأمريكية (1945-1953)، دراسة فى العلاقات السياسية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012.
- ه. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية (1600-1965)، ترجمة؛ عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الرابع فى التاريخ الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994.
- ه.أ. فشر: تاريخ أوروبا الحديث (1789-1950)، ترجمة؛ أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع، جمعية التاريخ الحديث، ط9، دار المعارف، القاهرة، 1993.
- وليم أ. روبسن: نظام الحكم فى بريطانيا العظمى؛ ترجمة؛ محمد عوض إبراهيم بك، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة، 1944.

الرسائل العلمية:

- عادل محمد محمد إبراهيم: دور رئيس الدولة فى النظم الدستورية المعاصرة " دراسة مقارنة"، رسالة دكتوراة، جامعة الإسكندرية، كلية الحقوق، 1999.
- محمد سيد إسماعيل: الحياة النيابية فى بريطانيا (1832-1919)، رسالة ماجستير، جامعة جنوب الوادى، كلية الآداب بقنا، 2012.
- _____ : الحياة البرلمانية فى بريطانيا والولايات المتحدة (1919-1945م) دراسة مقارنة، رسالة دكتوراة، 2015.